رواية

الغداء الأخير

توفيق أحمد جاد

أصابني الذّهول من ذلك المنظر المرعب، وأنا أقف على تلك الصخور الصّماء في حارتي الجبلية.. منظر اشتعال النيران والتهامها للحديد والصُّخور.. منظرٌ لمْ أعهده مِنْ قبل، بدأت الحرب تستعر في قلوبنا قبل استعارها في ميدان المعركة، لتطفئ كلّ شمعة أملٍ كنّا نعيش عليها أو نحلم بها.

لست أدري لِمَ عاد ذلك الحلم البغيض يسكنني ويغزوني..! راودني لسنوات مضت، فارقني منذ عام ونيّف، كِدْتُ أنساه، حسبته شاخ وهرم، مات ولن يعود، فوجئت به يأتيني شاباً يافعاً قويّاً، يحتلّني ويغرز أظفاره وأنيابه في ثناناي، خشيت كثيراً منْ أنْ تكون أحلام الأمس، هي حقائق اليوم، فما بين الواقع والحلم.. تُخلق الآمال والآلام، تمنيت في تلك الأيّام لوْ تبخّر ذلك الحلم اللعين، فلا يعود له وجودٌ..! لعنه الله.. يرعبني.. يشلّ كلُّ حواسي حين يهاجمني..!

شهر حزيران، هو رمز الفرح والسّعادة للأطفال والصّبية، نهاية العام الدّراسي، الذي ننتظر قدومه بفارغ الصّبر، وبداية لمرحلة نعشقها بشغف، العطلة الصّيفية تبدأ، وتبدأ معها رحلة اللعب بلا حدود ولا منغّصات..!

أصحو من نومي والابتسامة ترتسم على محيّاي، أمّا في تلك الليلة المشؤومة، فقد أفقتُ مذعوراً، أبكي بكاءً مريراً، لا أستطيع التقاط أنفاسي، أحسست بماء دافئ ينساب بين فخذيْ، رغم أنّني أصبحت صبيّاً. تهرع أمي كعادتها، حين كنت أصحو وحالتي كهذه، تحمل كأساً من الماء بيدها، تذكر اسم الله عليَّ وتقرأ المعوّذات، تحتضنُني.. تضُمُّني إلى صدرها بقوة، تُطوّقني بذراعيها الحنونين، أُحسُّ بأنّها تُودُّ لو فتحت صدرها وأخفتني في قلبها الأبيض. تلفّني بطرف ثوبها، تُهدهدني كرضيع لا يأمن إلّا في حِجر أمّه وعلى صدرها. تنساب دموعي بغزارة، وكأنّها شلال،

تأخذُ بطرف ثوبها.. تمسح دموعي المُنسابة على وجنتيّ كروافد الأنهار، بلطفٍ وحنان، تُزيلُ ما علق في مقلتيّ من القذى.. تقرأ عليّ القرآن أحياناً، وتقوم بالنّشيد والغناء أحياناً أخرى، لم تَكُنْ تحفظ من كتاب الله سوى المعوّذات، بعدها.. تلجأ إلى الأناشيد أو الغناء حتّى تُسيطر على بكائي وخوفي.. فأهدأ، تُحاول أن تُديم التّكلُّم حتّى تشعرني بالأمان.. فأسكت..!

تسألني أمي عمّا أراه في حلمي، أسرد عليها ما كنتُ أراه في الأعوام المنصرمة وما رأيته في ليلتي تلك، حيث كنتُ أرى كلباً أسوداً.. أحمر العينين.. كبير الحجم.. يربض في منطقة بعيدة.. شاسعة وقاحلة.. ظلامها دامس كقعر بئر عميق.. لست أدري ما الذي أتى بي إلى ذاك المكان اللعين..؟! يتقدم مجموعة من الوحوش، جميعها تُكشّرُ عن أنيابها.. تقترب مني تنبُح وتصيح بأصوات مختلفة، ميزتها المشتركة أنّها جميعاً تُصْدرُ أصواتاً عالية ومرعبة، تقترب مني، يبدأ ذلك الكلب بنباح غريب، يفغر فاه حتّى أرى كلّ أضراسه الكبيرة، يُشير برأسه عليّ وكأنّه زعيم لعصابة أشرار، تُهاجمني تلك الوحوش من كلّ حدبٍ وصوب، ما أنْ يُمْسك أولها في طرف كُمّي.. حتى يبدأ يجذبني إليه ويسحبني لأتوسّطها، أصحو من نومي مذعوراً وأرتجف رعباً.

لمْ تملّ أمي من تكرار روايتي للحلم.. تُربّتُ بلطفٍ على ظهري، وتقول لي: لا تخفْ يا ولدي.. ها هو والدك يقف في الصلاة، سيدعو الله بأن يجنّبك هذا الحلم اللعين، أمّا تلك الوحوش فقد أحسّت بوجوده وهربت، أعدك يا ولدي الحبيب أن لا تعود، فقط.. نَمْ قرير العين.. هادئ البال.. وها أنت ترى أنّك في أحضاني ولا شيء يستطيع أن يصلك. تستمرّ أمي بحديثها وتطميناتها وكأنني لا أعي ما تقول، ومع ذلك فأنا أستمع لها بشغف، أُحسُّ بالأمان.. أسرح بتفكيري بالحارة والأولاد واللعب، أحاول أنْ أحلم بالسعادة والفرح، متناسياً تلك الصور المرعبة، التعب أعياني.. كثرة البكاء أرهقتني، أعود أغطُّ في سُبات عميق.

لمْ يفسّر لي والداي ذلك الحلم المخيف، ربّما يقوم الواقع بتفسيره يوماً ما..! فيكشف ما أخفى الزمن بين ثناياه، فالحلم المتكرر لا بدّ وأن يُفسّرُ، سواء بفرح أو بتعاسة، ربّما يرسمه الواقع قريباً أو بعيداً، الأيّام حُبلى، ستتمخّض عن ولادات كثيرة، ويبقى السؤال: هل سيكون هذا الحلم من بين المواليد..؟! هل كان حلماً عابراً..؟! ماذا يُخبّئ بين جنباته..؟!

كنّا نعيش بسلام آمنين مطمئنين، نلعب نهاراً وبعضاً من الليل، دون خوفٍ أو وجلٍ، كانت سعادتُنا لا توصف، رغم أنّنا كنّا نلعب بالتراب؛ فتصاب عيوننا بالالتهابات، وتتّسخ ملابسنا، فتعاقبنا أمهاتنا عند عودتنا لبيوتنا، و كنّا نأخذ الأسلاك الشائكة، فنسحب منها النتوءات الحادة، ثم نصنع منها سياراتٍ على اختلاف أشكالها وأحجامها، وكلّما كان الإتقان واضحاً في ذلك التصنيع ، ازداد تفاخرنا على أقراننا، حتّى أنّنا كنّا نذهب إلى الحارات الأخرى لاستعراض ما صنعنا والتباهي به بين الأولاد، رغم ما تتركه الشمس الحارقة من آثارٍ خيوط سوداء على جبهاتنا.
لمْ يكنْ اللّعب نهاراً يقتصر على ذلك، بلْ نتعداه إلى ألعابٍ أخرى مثل " اللّحقة والشّردة ".. فكنّا عندما نهرب، تتعالى أصواتنا بالضحك مِنَ الفرح والسرور، نتيه في عالمٍ من السّعادة، كنّا حفاة الأقدام.. فلا أحذيةً نلبسها، إلّا للمدرسة والزّيارات التي كانت شحيحةً علينا، كانَ أحدهم يلحق بنا.. نهرب منْ أمامِه في اتّجاهات مختلفة.. يرقبنا بعيونٍ متفحّصَة ليقرّر مَنْ هو فريسته القادمة، يستبطيء أحدنا.. يركض خلفه حتّى يمسك به.. يصبح - الممسوك - هو المُلاحِق الجديد، وهكذا.. كانتْ ممارسة رياضية شيّقة.
عندما يجنّ الليل.. نلعب "الغمّيضة" فنتخفّى جميعاً.. ويبقى أحدنا يبحث عنّا، كان عليه أنْ يتحدى العتمتين، عتمة الليل وعتمة -الإغماض- اللتان تضيفان السعادة والفرح لحياتنا رغمَ السواد والظلام..
بالتأكيد كانَ للفقر الشديد تأثيرٌ واضحٌ.. فلمْ يكنْ لأيٍّ منّا كُرة.. فكنّا نستبدلها بكرة نقوم بصنعها بأنفسنا، منْ بقايا الملابس المهترئة، لنلعب بها

لعبة "السبع حجار".. حيثُ كنّا "نصفُّ" سبعة أحجار متوسطة الحجم فوق بعضها.. ثمّ نقوم برميها "بكرة الشرايط". وعندما تقع الحجارة نهرب في كلّ الاتّجاهات، ليرمينا بها واحد منّا.. فإذا أصابت أحدنا يصبح "ميتاً" وبذلك لا يحقُّ له أنْ يستمر باللعب، بلْ يقوم بالجلوس بعيدا، حتّى انتهاء صفُّ الحجارة وبنائها، وأمهرنا هو منْ يُحاول تجنّب الاصابة بالكرة للاستمرار باللعب.

كانت سعادتنا باللعب تستحوذ على كلّ اهتماماتنا، ورغم أنّنا كنّا كثيرا ما نتعثر ونقع على الصخور بسبب وعورتها، فنصابُ بجروح ورضوض، إلّا أنّنا كنّا ننهض من جديد لنتابع لعبنا، بلا يأسٍ أو مللٍ.

لكنْ.. لمْ تدمْ هذه السعادة طويلاً.. فقدْ بدأتْ الطائرات والمدافع تغتصب الفرح والابتسامة لتسرقها منْ عيوننا التي لم تعرف الحزن يوماً، أَنظرُ منْ أعلى الجبل إلى بيوت المخيم، الذي ولدتُ فيه، وترعرعتُ على أعتابه، فرغمَ تواضعها، إلّا أنّها كانتْ ترسمُ لوحةً فسيفسائية، تتكوّنُ منْ بيوته، وأشجاره، وأزقّته الضّيقة.. تلك البيوت، التي كانتْ تهتزُّ على وقع أصوات الانفجارات الشديدة، فتجعل أفئدتنا ترتجف خوفاً ورعباً لتنزع ما تبقّى فيها منْ سعادةٍ وفرح.. نركضُ في جميع الاتّجاهات، للبحث عنْ زاوية أوْ مكانٍ آمنٍ نأوي إليه.. البكاء يتعالى، والصراخ يرتفع، النّساء يبحثن عنْ صغارهن بالعويل والصراخ، يتصادمُ الكبارُ والصّغار، لا يلوي أحدهم على شيء، فالرعب أفقدهم التفكير والتركيز. اشتعال النّيران في منطقة السّكة الحديديّة والكسارة الملاصقة لها، يزيدُ المشهدُ رعباً وخوفاً، وترتفعُ أصوات الانفجارات وهدير صوت الطّائرات.

لقدْ احتلّ الإنجليز أرض المخيّم عام 1919م، حيثُ أنشأوا سجناً على أرضه.

قام الإنجليز ومِنْ خلفهم العالم، بطعن فلسطين بخنجرٍ مسمومٍ بخاصرتها، أحكموا غرز ذلك الخنجر كاملاً في الجسم الفلسطيني الجميل، ليعمّ الألم جميع أرجاء الوطن العربي والمسلمين، لتبدأ مسيرة الألم والحُزن.

في عام 1949م.. تعرضت فلسطين لعاصفة ثلجيّة قويّة.. أدّت إلى تدمير خيم مخيم "جنزور" الذي كان قد تمّ إنشاؤه عام 1948م للناس الفارّين منْ مدنهم وقراهم داخل فلسطين، فأنشأته الأمم المتّحدة قرب جنين.. بعدَ أنْ دمّرته العاصفة الثلجيّة، قامت الأمم المتحدة باستبداله بمخيم "نور شَمْسْ"، هجرة تتبعها أخرى، وشتات يتبعه شتات آخر، وكأننا طابات صغيرة، وُضِعَتْ في طنجرة، فيهُزُّها ويُحرّكُها حاملها كيفما أراد.
كان التّشديد على السّجناء يجعلهم يُفضّلون العمل في الكسّارة على البقاء داخل السّجن.. فالسّجين في الكسّارة.. يعود مساءً فرحاً بين أصحابه.. ليقول لهم: "أنا اليوم شُفِتْ نور الشمس".
تولد قصّة معاناة كلّ ساعة وكلّ يوم داخل غياهب هذا السجن، فكانت حالات الجنون والحالات النفسية تنتشر بين السجناء.. تتوالى حالات الانتحار ومحاولات الهرب أو إيذاء النّفْس، بدأ البعض منهم بمحاولات الهرب والبعض الآخر فضّل أنْ يمتنع عنْ الطعام والشراب، فكان الموت هو نهايتهم في الحالتين.
فجأة وأنا مشدوه ممّا أراه أمام عينَي.. وإذا بصوت لمْ أعهده منْ قبل.. صوت هدير طائرة صهيونية، زاد أزيزها منْ رُعبي و بلاهتي.. تتبّعتُها بنظري.. وبدأتُ السباق مَعَها.
وبيْنما نحنُ في المغارة، نختبئ مِنَ القَصْفِ، سادت بالخارج فوضى عارمة، ارتبكنا.. فَمِنْ امرأةٍ نائحةٍ إلى طفل باكٍ، ومِنْ رجالٍ شديدي القلق إلى أطفالٍ مذعورين.. الأصوات تتداخل لتتسبّب بفوضى شديدة وقلق مريب.
في هذه الأثناء دخل والدي، ومعه بعض الرجال من كبار السن، أحاطوا بالمشاعر المتخبّطة.. نظّموها.. ثم بدأوا بإصدار تعليماتهم للناس بالخروج من تلك المغارة، واللحاق بجموع الهاربين إلى الجبال، خرجنا بفوضى وركضنا متجهين إلى الجبال القريبة، محاولين اللحاق بمن سبقنا من الناس دون البحث أو التدقيق عن أيّ من أفراد الأسرة.

في لحظة أربكتني، التفت إلى الوراء، نظرت إلى مدرستي مودّعاً لها، كانت تربض على قمة الجبل الغربي للمخيم، وكأنّها قلعة شامخة، اعتقدتُ حينها أنّي لن أعود إليها، ولن أراها مرةً أخرى ! وإذا بقذيفة تصيب زاويتها الشماليّة الشرقيّة؛ فتهدمها! - أنا أذكرها جيداً.. لن أنساها – اعتصر قلبي ألماً عليها، في ثوانٍ قليلة، استذكرت أصحابي ومدرّسيني، وذكريات، اختلط فيها أيّام سعادة، وأيّام شقاء.

ركضت متخبّطاً بين الناس، حتى وصلنا إلى سلسلة حجرية ترتفع قليلا، المنطقة اكتظّت بالناس، وذلك لصعوبة عبور تلك السلسلة، هناك يقف رجلاً كالطّوْد، أسود البشرة، طويل القامة، العرق يتصبّب من جبينه، حذاؤه بضخامة نعلين، وكأنّه مارد، كان يحمل الأطفال وينقلهم إلى الجهة الأخرى، مساعداً لهم على تخطي ذلك العائق الصعب، رأيت السلسلة وكأنّها سور الصين العظيم، ليس لعلُوّها، وإنما من الخوف الذي سكنني.

ما أدهشني وأثار استغرابي رغم صغر سنّي، أنني سمعتهم يتحدثون عن تـأخُّر والـدي وعودتـه للبيـت مـن أجـل إحضـار بعضـاً مـن حاجاتنـا الضرورية.

كان أخي الثاني، والذي لم يتعدَّ عمره الأحد عشر عاماً.. يحمل أختي "رويدة" التي لم تتجاوز العام من عمرها، قام بإلقائها في الطريق بسبب التعب والخوف الشديدين، على مقربة منه كان يسير أخي الكبير، هرول إلى أختي ،التقطها ..وذهب بها إلى بيت جدّي، هنا.. انقسمنا.. وكان هذا حالنا، دار جدي كانوا يفرّون باتّجاه الشرق، حتى وصلنا إلى منطقة "كفر اللبد" القريبة من بلدة "عنبتا". أشار الكبار بالتوقف والمكوث قليلاً تحت أشجار الزيتون، للاحتماء فيها.. يحاولون إخفاءنا عن أعين الطّائرات، ريثما تتضح الأمور وتنجلي الغمامة .

بدأ أرباب الأسر والكبار بلّمّ الشمل.. والبحث عن أفراد أسرهم، البحث عن مفقود كالبحث عن إبرة في كومة قشّ، أمّا والدي فبادر بالسؤال عن

أخي رفعت وأختي رويدة، وبعد عناء طويل.. أفاد أحدهم بأن أختي وأخي ليسا بعيدين، وأشار إلى الجهة التي كانا فيها، مع جدّي وعائلته.
بدأت المصاعب والمشاكل تطفو على السطح وتتضخم.. فالناس بلا طعام أو ماء.. و الموت أقرب ما يكون إليهم! في وضع مُرْبكٍ كهذا، لم يكن الرجال يجزمون بأفكارٍ أو حلول ناجعة، فهم يتخبطون كمن لدغته أفعى أو كمن يهاجمه وحش ضار. أصدروا قرارات وحلول و جربوها.. لكنهم غالبا ما كانوا يفشلون!
حلّ الظلام.. وما زالت الطائرات الحربية الصهيونية، تمرّ من فوق رؤوسنا، لترعبنا بأزيزها المرتفع.. كانت تطير بانخفاض شديد وسرعة فائقة وكأنها شياطين المساء، لا ندري من أين تأتي، ولا إلى أين تذهب.
كنّا نسمع أصواتَ انفجاراتِ قنابلِ المدافعِ بمنطقة المخيم والمناطق المجاورة، ومع شدّة التّعب والإرهاق وكثرة البكاء.. نمنا. الكوابيس وصور الموت المختلفة والمتعدّدة بكلّ بشاعتها، لمْ تفارقَنا في تلك الليلة.
كانت زوجة أحمد الحلو تعاني آلام المخاض، تُرافقنا "الدّاية أم محمد"، بدأت علامات الولادة تتزايد.. طلبت أم محمد من بعض النسوة أن يقفن ليشكلنَ حاجزاً، وساتراً لها على شكل دائرة، ليُحِطْنَ بها، كان صراخها مسموعاً للجميع، آلام الولادة تشتد وتقوى، وبعد ساعة من المعاناة، سمعنا صراخ الطفل، أخيراً.. جاء إلى الدنيا طفل تعيس الحظ، ليكون شاهداً جديداً على المأساة.
ابتهجت السماء لولادته.. زغردت النساء فرحاً رغم كلّ ما يحلّ بنا، وتداخل الفرح والسرور مع الخوف والغضب، اللّذَيْن كنّا نعاني منهما، لكنْ.. غلب على المشهد فرحنا بالمولود الجديد.. فرح يسير، بعد ألم طويل، حضر المولود وغابت حلويات ولادته التي كنّا نتشوق لأن نراها، نسينا الطائرات وانتظرنا الحلويات.
مضى على هذا الحال، ثلاثة أو أربعة أيام، والنقاش المستفيض بين الكبار مستمر حول ما رأوه خلال زيارتهم للمخيم، تارةً يقولون أنّ المخيم يسوده

هدوء حذر، وكأنّه غابة أشباح، وأخرى أنّ الصهاينة شوّهوا ملامحه، فلا دلائل على وجود حياة فيه، كلّ شيء ساكن إلاّ من حركة خفيفة للأشجار، وكأنها بحركتها هذه، تنوح على ما حلّ بأهل هذا المخيم، أمّا الحيوانات والطيور، فلم يعد يُسمعُ لها أصوات، فربما أخرسها الخوف والرُّعب.
كلّ ما كان في المخيم ميت، ينتظر البعث والنشور، إلاّ من حركة الجنود المدَججين بأسلحتهم.. يصطفّون متأهبين على الشارع الرئيسي، الواصل بين مدينتي طولكرم ونابلس، ذلك الشارع الذي يقسم المخيم إلى قسمين، هو ووادي الزّومر الذي كان يحاذي الشارع على طول امتداده، وكأنّ كلّ منهما يقوم على حراسة أخيه. الجنود كانوا يرتدون لباس أحد الجيوش العربيّة، اقتربوا خلسة من الجنود حتى أصبحوا يتبينون ملامح وجوههم، كانت ألوان بشرتهم متعددة، فهم عبارة عن خليط من جنسيات عدّة، أشكالهم لا تدلّ على أنهم عرب، وجوهٌ غريبةً لم نعتدْها.
بدأوا بالتشاور مع باقي رجال المخيم بشأن المرحلة القادمة، استمرّ نقاشهم يوماً أو بعض يوم، الإرباك وسوء الرأي أخّرا قرارهم، ليعتمدوا القرار الأخير بذهاب مجموعة من الرجال، ممن يتحدثون العبريّة، إلى المخيم لاستطلاع الأمر، وليتحدثوا إلى الجنود. ذهبوا.. عادوا بعد ساعات، وعلامات الانزعاج والقلق بادية على محيّاهم.
كان الجميع ينتظر سماع نشرة الأخبار، على أحرّ من الجمر.. انتظارٌ قاتلٌ.. كانت اللّهفة تنهشُ قلوبنا، كنّا ننتظر بفارغ الصبر، لسماع أخبار سارّة، من المذياع الوحيد الذي كان موجوداً مع أحد الشيوخ الكبار، كان يَصدر كلّ دقائق قليلة بياناً عسكرياً يذيعه "أحمد سعيد"، يُعلن فيه عن انتصارات عربية جديدة على الجبهة المصرية والسورية والأردنية.
جلس الرجال، تحلّقَ النّاس من حولهم، يستعجلونهم بالبشرى، لكنّ الصدمة وقعت على رؤوسهم وقع الصاعقة، فقد كان الردّ مفجعاً ومؤلماً، فالصهاينة احتلّوا البلاد كاملة وانتهى الأمر، والجنود الذين يلبسون اللباس

العسكري العائد لأحد الجيوش العربيّة، ما هم في حقيقة الأمر إلاّ جنود صهاينة مغتصِبين.
اختلف الناس في آرائهم، منهم من فضّل أن يستمرّ في السّير شرقاً إلى الأردن، ومنهم من فضّل العودة والموت ببلده، فاحتمال الموت في الحالتين وارد وربّما مؤكّد بالنسبة لنا، أصبحنا في أحضان ألدّ الأعداء، يحيطون بنا من كلّ جانب، لا مفرّ منهم إلاّ بمواجهتهم. قرّر والدي أنْ نعود إلى المخيم، لكنّ جارنا "أبو طبيخ" اقترح أن نذهب إلى مغارة "أبي كعبل"، في جبل قريب من بلدة كفر اللبد، فإن أمنّا.. مكثنا، وإلاّ.. عُدْنا إلى المخيم، أمانٌ أشبه ما يكون بأمان الغنم من الذّئب!
جاء بعض المارّة.. أجلسهم والدي وسألهم: من أين أنتم؟ ومن أين حضرتم؟.
أجاب أحدهم- وكان مُسِنّاً - : نحن من بلدة (عنبتا) والبعض منّا من قرية (بلعا).
والدي- وماذا حصل معكم ؟
المسن- دمّرونا.. ما الذي قد يحصل أسوأ من هذا!
والدي- هل قُتِلَ أحدٌ عندكم ؟
المسن- بلا شكّ.. ضربوا الناس.. و سرقوا كل شيء...
اغتاظ والدي، وقال: "والله لا يرُدّ رأسي إلّا داري.. هي ميتة واحدة.. خلّينا نموت بدورنا أحسن من هالبهدلة.. هيّا يا أولاد، قوموا، وتَحرّكُوا إلى المخيم".
أمّا جدي فأقسم أنْ لا يبقى في بلدٍ يحتلّه اليهود، حتّى لو كان هذا البلد هو بلده، طلب من والدي بأنْ يأخذ معه أخي الكبير ليشتمّ منه ريح أمي، لم يتردد والدي بالموافقة.. وغادرونا متجهين إلى الأردن. في اليوم السادس للحرب، تمّ إعلان الهدنة، ووقف لإطلاق النار بفرض واقع جديد بين الأردن وسوريا ومصر من جهة، والكيان الصهيوني من جهة أخرى، فقد احتُلّ ما تبقّى منْ فلسطين، والجولان السوري، وسيناء المصريّة، فمن

النكبة إلى النكسة، والذلّ والعار يتلاحقان، ليضيع أمل الناس بالعودة لما اغتُصِب من فلسطين في عام النكبة، اتّسعت دائرة الاحتلال لتشمل دولاً عربيّةً أخرى.
عاد الشتات من جديد.. اختلطت الأوراق.. الذُّهول عمّ الجميع.. تخبّط وضياع.. لم يتيحوا للعائلات أن تقوم بِلَمّ شملها.. فمن كان خارج المنزل انقطع عن أهله، اعتبروه في عِداد مَنْ فُقِدوا، أصبحت العائلة الواحدة تنقسم بين الأردن وفلسطين، بلْ في دولٍ أخرى ومتفرّقة مِنَ العالم.
هذا الشتات أدّى بالحكومة الأردنية، والإعلام الأردني إلى استحداث برنامج إذاعيّ، يتواصل معه الناس الذين فقدوا بعضهم، ليعلنوا من خلاله عن أنفسهم، ومكان إقامتهم بالأردن أو أي بلد آخر.
كانت الحياة رتيبة مملّة، والفقر ينهش القلوب والأرواح بلا رحمه، اتّسمت حياتهم وعيشُهم بالضّياع، ضياع كل شيء، فلا أمل لهم بالعودة قريباً.
كان الاحتلال يجتهد ويضع كل إمكاناته ودهائه لتحطيم الروح المعنوية لدى الفلسطينيين، ولم يُتح الفرصة لهم لالتقاط أنفاسهم، توقفت عجلة العمل ودورته الاقتصادية، ليزداد الوضع سوءاً على سوء، لدفعهم قسْراً إلى الهجرة، ومن تشبّث بالبقاء عليه أن يمتثل لأقصى درجات القهر، والموت كمَداً.
بدأت المقاومة من خلال أعمال فدائية ،تنطلق من الأردن باتّجاه الأراضي المحتلة، كان الجيش الأردني يقوم بتسهيل مهمة الفدائيين، وكثيراً ما كان الفدائيون يقومون بعمليات ضد اليهود، وعند انسحابهم كان اليهود يقصفونهم بقوة، لكنّ الجيش العربي كان يُقدّم تغطية لهم، وذلك من خلال الرد على الجهة التي تقصفهم، وكثيراً ما يتم حماية القوة المنسحبة ليصلوا سالمين، ولكنهم متعبين ومرعوبين، كونهم يُلاحقون من عدوهم بوابل من الطلقات والقنابل، فيستقبلهم بواسل الجيش العربي، يقدّمون لهم الزاد والشراب، يصبحون آمنين مطمئنين، ويعودون لأهليهم سالمين، ومن يصاب منهم يقومون بتأمين الرعاية الصحية والعلاج له.

***

سنوات قليلة مضت بصعابها ومعاناتها، بعدها قُمت بالسفر إلى عمان من أجل إتمام دراستي، هناك، التقيت بأحد أصدقاء والدي، دار بيننا حديث حول الشتات وما جرى للكثير من العائلات والقصص الّتي أصبحت تتكشّف وتطفو على السطح لتُبرِزُ الكثير من المعاناة والأحداث، فقال:
بدأت الحياة تستقرّ في عمّان، والقدس لمْ تَغِبْ عنْ ذاكرتهم، ما زال أكثر الناس يعيش في المخيّمات، بعضهم استطاع أنْ يعمل في مشاريع حكوميّة وأخرى خاصّة، كما التحق الطلبة في مدارس حكوميّة وخاصّة وأخرى تَتْبَعُ لوكالة الغوث الدّوليّة.
سنوات عجاف مرّتْ على صالح، كان قد أنهى خلالها دراسته في الجامعة الأردنية، تمّ تعيينه في إحدى الوزارات، كان صالح يطمح لحياة أفضل، فالتّعليم هو الطّريق لاستعادة فلسطين، والقضاء على الجهل هو الطّريق إلى الحريّة والحياة الأفضل.
كثيراً ما كان صالح يجلس صامتاً، مفكراً بما مرَّ منْ أيامٍ صعبةٍ عليه وعلى عائلته، تمرّ في ذاكرته سنوات طفولته ومعاناته، بعدما تُوفيت والدته وهو ما يزال طفلاً يافعاً، وكيف أنّ والده كان يتعب كثيراً في تربيته، ممّا اضطرّه أن يبدأ بمحاولة صنع بعض الأنواع البسيطة من الطّعام، علّه يقوم بمساعدة والده الذي كان يكدّ للحصول على دنانير قليلة، يخرج في الصّباح الباكر إلى عمله، ليعود متأخراً في المساء، متعباً.. فيبدأ بصنع الطّعام لهما، تفكيره يعود به إلى تلك الطّفولة البائسة، وحرمانه من أن يعيشها كأبناء جيله، حمل همّ والده المُتعَبْ، وهمّ أخيه الصغير، لم يكن يجد مُتّسعاً من الوقت كي يلعب مع أولاد حارته، هذا العَجِيّ الذي كان يتعطّش لحنان الأمّ المفقود، والطفولة البائسة، إلى أن تزوّج والده من

امرأة تكبُرُه بعدّة سنوات، كانت له أمّاً رؤوماً، تُغدق عليه وعلى أخيه الصغير ماجد حبّاً وحناناً، إلاّ أنّ هذا الحبّ والحنان، بدأ يخبو ضوؤه حينما بدأ يظهر حملها، رزقها الله بولد جميل الخِلقة، عاش ذلك الطّفل أربعة شهور، ثمّ توفّاه الله، حزنت كثيراً على ولدها، بدأت تُحسّن من معاملتها لصالح، لَمْ يَدُم هذا الرّبيع طويلاً، عادت لتحمل من جديد، أنجبت طفلة كأنّها البدر عند اكتماله، أحبّها صالح كثيراً، يُحِسُّ بسعادة غامرة حين يلاعبها، يحملها على كتفيه، مُمْسكاً بها بيد، وماجد بيده الأخرى، يخرج يسير فيها بين الأزقّة في حارتهم، تملأه السعادة والفرح، تنقلب البسمة التي ترتسم على شفتيه، حينما يبدأ بالتّفكيرِ بأخته الطفلة التي أضاعوها عام النّكسة، كما هي عادته عند تذكُّر أخته، يحتضن أخيه ، يقوم بالمسح على شعره، يتيه في خياله.. يرسمها جوهرة تتلألأ.. يقترب لالتقاطها فلا يجدها.. يحاول إحياء آماله بعودتها كما يحاول كلّ فلسطيني أنْ يُبقي آماله بالعودة.

اعتاد أن ينزل إلى أحد المطاعم القريبة من عمله في الوزارة لتناول طعام إفطاره، يجلس على طاولته وحيداً، يتناول طعامه بهدوء، يرتشف كأساً من الشاي ثم يعود إلى عمله.

لا يترك فرصة للحديث عن أحداث عام 1967م وعن الشّتات الذي حلّ بأهله ومَن يعرفهم مِن النّازحين، يروي لصديقه وزميله في العمل علي، الذي كان يستمع له بشغف وكأنّه يشاركه أحاسيسه وحزنه فيشدّ مِن عضده ويحاول أن يخفّف عنه هذه المعاناة، ويذكّره بوالده الذي جرح وهو يدافع عن القدس الشريف حتّى أصيب إصابة بليغة أدّت إلى بتْر يده اليمنى ليعود إلى بلدته في الكرك، والانتقال بعدها بسنوات قليلة إلى العاصمة عمّان، وما كانت تَذكُرُه له والدته عن يوم ولادته بالقدس، وكيف أنّ جارهم أبا أحمد وزوجته أخذاها وقت ولادتها إلى المستشفى، وذلك في يوم دوام زوجها في وحدته العسكريّة، أنجبت طفلاً ذكراً، كان والده لا

يزال في عمله، ولا يعلم شيئاً عن ولادة زوجته، وعندما أخرجوها من المستشفى قام أبو أحمد بتسمية المولود بعلي.
ذات يوم.. وبينما صالح يتناول طعام إفطاره، رفع بصره قليلاً، رأى على الطّاولة المقابلة له، فتاة تسترقُ النّظر إليه على استحياء، لفت نظره جمال ورِقّةَ هذه الفتاة بابتسامتها الخجولة المرتسمة على محَيّاها، أطرق حياءً، لكنّه ما لبث أن عاود النظر إليها، لمْ يستطع تجاهل هذا الوجه الملائكي وتلك الابتسامة الرقيقة، شدّته إليها وكأنّها مغناطيس يجذبه إليها، أرسلَ لها ابتسامة لطيفة، بادلته الابتسامة، وغضّت منْ بصرها، تابعت تناول طعام إفطارها ببطءٍ شديد ورِقّة ظاهرة، وكأنّها ترسم لوحة فنيّة لفتاة فاتنة، ليتمتّع ويسعدُ بمراقبتها.
شرد صالح بخياله في جمالها الأخّاذ، غاب في فكره حالماً بمن يرى، استفاق منْ شروده، وإذا بها تُغادر المطعم، حاول اللّحاق بها، ولكنّه تسمّر في مكانه، يمنعه الحياء، كانت تمشي الهوينى، رآها تنطلق كسهم ينطلق مُسرعاً ليغرز في قلب قتيله.
كمْ لامَ نفسه على شروده هذا، وتساءل : "ما الذي جرى معي؟ لمَ لَمْ أتابعها، وأحاول أن أتعرّف عليها؟.. إنّها ملاكٌ بهيئة إنسان.. يا إلهي ! كم أنا غبيّ !".
عادَ إلى عمله في الوزارة، لا يعي ما يراه في طريقه، جُلُّ تفكيره بمن سلبت منه اللّبّ وغابت. أنهى دوامه في ذلك اليوم وهو يشعر بانقباض شديد في صدره، هل هي تلك الحورية أم هو شيء آخر؟ اختلط عليه الأمر، جلس إلى الغداء مع أهله سارحاً شارداً، ممّا لفت نظر والديه له، فسألته زوجة أبيه- التي اعتاد بأن يناديها بأمّي-: ما بك يا ولدي؟
صالح - ها.. ها..
الأم - ما بك يا ولدي!
صالح - لا شيء يا أمّي، فقط أُحسُّ بأنّ صدري مقبوض...!
الأم- دعنا نأخذك إلى المستشفى إذن.

صالح - لا يا أمّي، فأنا بعد قليل سأكون بخير إنْ شاء الله.
الأم - أستحلفك بالله يا ولدي، لا تزدْ في همّي، يكفيني ما بي، يكفيني السّكري.. يكفيني نصف السّاق هذه!.
صالح - أمانة يا والدتي الحبيبة.. لا تُزعجي نفسك ، قطعوا لك نصف ساقك من السّكري، والآن نزيد همومك! يكفينا ما أصابك أيّتها الحبيبة.
الأم - إذن.. ابتسم قليلاً، وتناول طعام الغداء.
صالح - حاضر يا روحي.. "بس لا تزعلي".
في صبيحة اليوم التّالي، كانت الشمس ترسل خيوط أشعّتها الدافئة بحنيّة ورقّة، لتزيد من جمال ذاك الصباح، ولتحسّن من مزاج صالح، لكنّ ذلك الانقباض لا يفارقه، وبقي ضاغطاً على صدره، كان إحساسه بالسّعادة ممزوجاً بالقلق، كانت زقزقة العصافير في الطريق توحي برسائل.. هل كانت العصافير تُبْلِغُهُ بأمرٍ ما؟
هو إحساس ليس إلّا، في الشارع، يتحرّك النّاسُ منطلقين إلى أعمالهم، يوم عاديّ بكلّ ما يحتويه، الكلّ منطلق كعادته، إلّا صالح.. فهو في هذا الصباح يحملُ متناقضاتٍ كثيرة في صدره.
في مكتبه، طلب قهوته كالعادة، يحتسيها على مهل، يرتشف رشفة ويعود لشروده، كانت تلك الفتاة تسيطر على تفكيره، صورتها لا تغادر خياله، يراها تبتسم وهي تجلس في فنجانه، سَحَرهُ حُسنها وجمالها الأخّاذ، تمنّى لَوْ أنّها رشفت من فنجانه ولو رشفة واحدة، ليُقبّل ذلك الفنجان الذي قبّل فاها، أو أن تكون قد لامست يد الفنجان فيلمس أثر أناملها، فتصيبه قُشعريرة لمس آثار الحبيب فتستوطن قلبه وتتربع في حجراته، أمّا ابتسامتها فقد أصبحت دليله في كلّ خطواته لتملأ قلبه بحبّ مفاجئ.
كان يحلم بأنّها خُلقَتْ لسعادته.. وأنّه خُلق لإسعادها.. هل هي نصفه الجميل الغائب؟ حتّى أنّه لا يعرف عنها شيئاً، لمْ يكلّمها، طأطأ رأسه وأمسكه بين يديه وشرد بتفكيره.

بينما هو على هذا الحال، وإذا بمعاملة تمتدّ بصمت وهدوء بين يديه ، نظر إليها.. أمسكها.. نظر إليها برهة، ثم أغلقها دون أنْ يرفع بصره لمنْ يقدّمها! لا يرى إلاّ صورة من سرقت قلبه وغابت، تركته وحيداً يهيم بخيالاته إلى المجهول، إلى ملاكٍ اقتنصت منه العقل والروح، أعاد المعاملة لمقدّمها قائلاً: لو سمحتَ يا أخي، اذهب وأحضر الطّوابع.
امتدّت يدٌ تحمل بين أصابعها الطّوابع المطلوبة. نظر إلى تلك اليد.. لقد كانت أصابعها رفيعة، بياضها كبياض الثلج، ناعمة وكأنّها يد لعبة، تَزَيَّنَ أحد أصابعها بخاتم عليه خرزة زرقاء، تتدلى منْ رسغِها سلسلة ذهبية ناعمة. يدٌ يدلّ جمالها ورقّتها، على الجمال الفائق لصاحبتها ، رفع رأسه ببطء.. نظر إلى صاحبة الأظافر المطليّة، صُعقَ ممّا رأى، نهض على قدميه فاتحاً فاه باستغراب، قائلاً في سريرته: "يا إلهي! إنّها هي.. تلك الفتاة التي رأيتها بالأمس في المطعم"، تسمّرت عيناه واتّسعت حَدَقتاه وهو ينظر إليها، واضعاً يداه على مكتبه، كانت يداه وقدماه ترتجفان، ابتسمت الفتاة بوجهه ، وقالت: صباح الخير.
صالح - ص.. ص.. صباح النور.
الفتاة - لو سمحت، أريد إنجاز معاملتي، وقد تمّ تحويلها إليك.
صالح - أهلا وسهلا بكِ...
بقي واقفاً مندهشاً، نظر إلى عينيها، أبحر فيهما.. تساءل في نفسه: هل سيكون غرقي في بحر عينيها الساحرتين؟
انتبه صالح لنفسه، فقال لها : تفضلي.. اجلسي.
الفتاة - شكراً.
صالح - عفوًا.. ألمْ نلتقِ بالأمس؟
الفتاة – ربّما...! أرجو أن تساعدني بإنجاز هذه المعاملة.
بدا عليه الإحراج، فقال : سيتمّ كلّ شيء حالاً.. لا تقلقي.. أعطيني الطوابع.
لم يشأ أنْ يقوم بإلصاق الطّوابع، بل كان يفضّل النّظر إليها.. والنّظر فقط.

صالح - عفواً أيّتها السّيدة...
الفتاة - لطفاً.. آنسة.
الفتاة - لا...
صالح - أتذكّر صورتك منذ الأمس...
الفتاة - إممم... طأطأت رأسها باستحياء.
طلب لها فنجان قهوة، فشكرته.
تركها صالح تجلس في مكتبه، كانت السعادة والفرح ترتسمان على محيّاه، كان يحسّ بأنه نسر يحلّق في السماء، الفرحة لا تسعه، تنقّلَ بين مكاتب زملائه مدندناً:

يا حلو صبّح يا حلو طلّ
يا حلو صبّح نهارنا فلّ

نظر في معاملتها، أخذ ورقة عن مكتب أحد الزملاء، وبدأ ينقل عنها ويكتب:
*الاسم: رشيدة العمر
* مكان وتاريخ الولادة: فلسطين1965م
*الحالة الاجتماعية: عزباء
*المهنة: معلمة في مدرسة سكينة بنت الحسين للإناث.
وقام بتدوين رقم هاتفها.
وضع الورقة في جيبه، عاد إليها، كانت تجلس تنظر إلى أشيائه على المكتب وكأنها تتفقدها، جلس خلف طاولة مكتبه، نظر إليها، وبكلّ سعادة أخبرها بأن معاملتها قد تم إنجازها بالكامل، شكرته.. مدت يدها لتأخذها، لكنه سحبها للخلف وقال: آنسة رشيدة، ستتسلّمين معاملتك جاهزة غداً أو بعد غد، راجعيني لتتسلميها حال تجهيزها، فقط تبقّى توقيعها من المدير وهو غير موجود الآن.
رشيدة - ومن أين لك اسمي!

صـالح - عـذراً، لقـد أخـذت جميـع معلوماتـك عـن المعاملـة، فهـل هـذا يزعجك؟
رشيدة - لا! (قالتها على استحياء)
صـالح - يسرني ويسعدني يـا آنسـة أن نلتقي اليوم علـى الغداء ! – قالها وهو يشعر بقرارة نفسه بأنّه بدأ يتخبّط ولا يدري ما يقول!
رشيدة - ولكن!..
صـالح - أرجـوكِ.. سـأكون بمنتهـى السـعادة.. همـا سـاعتان ونلتقـي.. مـا رأيك؟
رشيدة - حسناً.. أين؟
صالح - في المطعم الذي التقيتك به !
رشيدة - ولكن... ؟
صالح - هذه دعوتي الأولى لكِ.. وأرجو أن تتقبلينها!
أجابته بالقبول بعدما امتقع وجهها احمراراً من الخجل.
تواعدا علـى اللقـاء، خرجـت مـن عنـده سـعيدة فرحـة، تابعهـا بنظـره حتـى خرجت من مكتبـه، أخـرج القُصاصـة من جيبـه، حدّق بهـا. هل كـان يعيد قراءتها ؟ أم أنّه كان ينظر إليها بعينيه فقط ؟ عقله ذهب مع صاحبتها.
عاد لشروده من جديد. أخرجـه علـيٌّ من شروده هذا حين سأله عن تلك الفتاة، وهل أنّه وقع في حبّها؟ ابتسم علي بخبث وهو ينتظر الجواب، أومأ له صالح برأسه موافقاً على ما قاله وابتسم ابتسامة لطيفة، وبينما هما علـى هـذا الحـال.. وإذا بهـاتف المكتـب يـرن، لـم يجبـه، فقـط أزاح بصـره عـن الأقصوصة ونظر إلى الهاتف، عاد الهاتف للرنين من جديد، رفع السماعة بهدوء وبطء شديدين، لم يتكلم، بل وضع السماعة علـى أذنـه، أتـاه الصـوت من الطرف الآخر مباشرة، كان صوتاً مرعباً.. صارخاً:
"الحق يا صالح، أبوي مات!".
انتفض صالح واقفاً، وقـال: "شـو؟.. شـو بتقـول يـا ماجد؟! ".. ولكـن الخـط أُقفِل..

ناداه علي.. لكنّه لم يردّ ولم يلتفت إليه، يتمتم وهو مندفع: لقد أصبحت وماجد لطيميْن.. لطيميْن..!
ذهبت رشيدة إلى المطعم حسب الموعد المتفق عليه، لكن صالحاً لم يحضر، انتظرته ساعة.. تستنشق أنفاسها قلقاً.. تزفرها ألماً من الانتظار الذي طال، ولكنّه لم يأت، كم كان ذلك الانتظار يقلقها، كان انتظاراً مزعجاً، ظلّت تجول ببصرها في أرجاء المكان.. تنظر إلى الداخل والخارج. ولكن.. دون جدوى. بدأ الشك يراودها، أسرّتْ في نفسها: ما الّي أخّره..؟! بغضب نادت على الجرسون. دفعت ثمن الشّاي الذي طلبته وغادرت مُسْرعة.
اغتاظت كثيرًا.. أرادت أن تذهب لمبنى الوزارة لاستطلاع الأمر، ولكنّها نسيت أنّ وقت الدوام كان قد انتهى. عادت إلى منزلها، والقلق بادٍ على محيّاها لا تدري ماذا ستفعل ؟
انشغل تفكيرها بصالح كثيراً، لقد أحبته وتعلّق قلبها به، كان هذا الحب الذي يسمى حباً من أول نظرة، لكنه بدأ بمصاعب. خلال نومها في تلك الليلة، تقلبت في فراشها كثيرًا، لقد سيطر صالح على عقلها وقلبها، حتى أنها لم تستطع النوم، جميع أحاسيسها ذهبت معه، نهضت من سريرها متثاقلة، أخرجت صورتها القديمة، بدأت تُمعنُ النظر فيها وتبتسم.
في صبيحة اليوم التالي، ذهبت رشيدة إلى مبنى وزارة التربية والتعليم، الواقعة في جبل العبدلي، قررت أن تذهب لتناول طعام الإفطار في ذلك المطعم، علّها تراه صُدفة هناك. دخلت مكتب صالح، لم تجد في المكتب سوى صديقه علي، سألته عنه.. فأخبرها بأنّ والده كان قد فارق الحياة، بعد خروجها ذلك اليوم من الوزارة بدقائق معدودة، تأسفت.. وخرجت.
كانت حزينةٌ لوفاة والده ، لكنها تشعر في قرارة نفسها بسرور كبير، لأن صالح لم يهملها، سرّها ذلك كثيراً، رغم ألمها على مصابه، تضاربت أحاسيسها، هل ستفرح أم ستحزن؟

لقد تغلب الحزن عليها، فالحزن أقوى تأثيراً من الفرح في الإنسان، وصلت بيتها.. دخلت غرفتها.. واستلقت على سريرها، كانت متعبة، وصالح يُحلّق في عقلها وقلبها، يتنقّل بين الاثنين، لا يترك مجالاً لأحدهما أن ينفرد به، وبينما هي شاردة في تفكيرها.. رنّ هاتفها، رفعت السماعة، جاءها صوت حزين محشرج من الطرف الاخر: السلام عليكم.
رشيدة - وعليكم السلام.
هو - لطفاً.. هل لي بأن أكلّم الآنسة رشيدة ؟
رشيدة - تفضل.. أنا رشيدة.. من معي؟
هو - أنا صالح الأحمد...
رشيدة - أهلاً.. أهلاً.. (قالتها بارتباك واضح ، وامتدت يدها إلى شعرها، تنساب عليه تصففه وكأنّه يراها)، البقيّة بحياتك بوفاة والدك.
صالح - هل توقعتِ بأن أكون أنا المتّصل؟
رشيدة - أكيد، لا.. ! ولكن.. من أين لك رقم هاتفي؟
صالح - أنسيت أنّني أخذت معلوماتك عن المعاملة؟
رشيدة - آآآآه فعلاً.. يبدو أنني نسيت ذلك!
صالح - لن أطيل عليكِ.. أتمنّى أن تقبلي دعوتي على الغداء غداً، وبنفس الموعد.. ونفس المطعم.
رشيدة - وهل ستحضر هذه المرّة؟
ودَّعها على أمل أن يلتقيا في اليوم التالي.
انطلقت رشيدة مسرعة إلى خزانتها، أخرجت الصورة التي كانت تحملها يوم ضياعها وبدأت بالنظر إليها والابتسام، تلك الصورة التي كانت تنظر إليها حين تُسَرّ أو تنزعج، كانت مُؤنستها ورفيقتها وذكرى طفولتها التي لا تتذكّر منها إلا هذه الصورة، تُحِسُّ بأنها رفيقة دربها، التي تأتمنُها على كلّ أسرارها.!

***

كان علي يغرق في حب نبيلة.. لكنّ خطوبتهما التي طالت، وتجاوزت السنتين، خلقت لهما الكثير من المشاكل.. حتى أن نبيلة كانت قد طلبت فسخ الخطوبة مرتين خلال هذه المدة.
اتفق مع نبيلة أن يعيشا في غرفة تجمعهما على الحب والسعادة، غرفة ضمن بيت أهله، لكن مطالب والد نبيلة في استكمال شروط عقد الزواج من ذهب وحفلات، عقَّدت الأمور، لدرجة أنّ زواجهما تأخر، يَنشُدان الوصال بلهفة، إلاّ أنّ المعيقات تتزايد.
ضغوطات والدها على العريس خلقت لهما أزمةً، ومحاولات والدة نبيلة لتسهيل الأمور، تصطدم بقرارات زوجها الصارمة في تنفيذ شروطه.
لم يكن أمام علي وسيلة أخرى إلّا أنْ يأخذ قرضاً منَ البنك لإتمام زواجه، لكنّ الترتيبات توقفت الآن، بسبب وفاة جاره ووالد صديقه صالح. ذهب إلى والد نبيلة، طلب منه تأجيل الزواج لشهر واحد فقط، وافق أبو محمود على ذلك، شريطة أنْ لا يتمَّ أيُّ تأخيرٍ آخر، وتحت أيّ ظرفٍ كان.
في ذات المساء، ذهب عليٌّ لزيارة صديقه صالح، أخبره بما حصل بينه وبين عمه، حاول صالحٌ أن يثنيه عن قراره بتأجيل موعد الزواج، سامحاً له بأن يُتِمّ زواجه متى شاء، لكنّ علي رفض رفضاً شديداً، وقال: "شو يا زلمة.. هذا واجب، إحنا إخوة، أنت بدك تفضحني بين الناس؟ وين وجهي من العالم"!
صالح - يا رجل.. الحيّ أبقى من الميت. وأنا أشكرك، لكن لا تُضيّع نبيلة من بين يديك.
علي- لا تقلق.. نبيلة متفهمة للوضع.
صالح- يا رجل يكفيك مشاكل.. وعمك "أبو نَكَدْ".. أنت ترى كم هو متشدد!.

علي- "أحكيلك.. إذا مش عاجبه يبطل!.. أنا ملّيت الخطوبة بسببه"!
صالح- يعني.. أنت أوصلت اللقمة إلى الفم.. وأصبحت تتدلل علينا.
علي- الموضوع ليس كما تقول يا رجل، أنت تعلم بأنه عجَّزني، ورغم تفهّم عمتي ونبيلة، لكنّهما غير قادرتين على فعل أيّ شيء!
صالح - إذن يا سيدي.. روّق وروّقنا.. واعمل ما بدا لك.
علي- وحضرتك.. ماذا فعلتَ مع رشيدة؟
صالح- الحمد لله، أنها متفهمة لما حصل معي!
علي- آآآه ؟
صالح- نعم.. وقبل قليل تكلمت معها.
علي- وماذا حصل؟
صالح - اتفقنا أن نلتقي غداً في المطعم، لتناول طعام الغداء.
علي - خيراً إن شاء الله. يبدو أنها ابنة حلالٍ.
صالح - "آه والله".. يبدو أنها ابنة أصلٍ وفصلٍ.
علي - خيراً إن شاء الله، الآن سأعود إلى البيت، لدي عمل كثير، أراك غداً أثناء الدوام.
صالح - أيّ دوام يا رجل! أيّ دوام هذا؟ ألم أخبرك بأنّ موعدي غداً مع رشيدة على الغداء؟ بعد غد سأداوم إن شاء الله تعالى، أمّا الآن.. دعني أتيه في رياض العشق والغرام...
غادر عليٌّ منزلَ صديقه صالح على أمل اللقاء في يوم دوامه بالوزارة. عاد صالح لتفكيره وشروده من جديد، أسئلة كثيرة تداخلت على عقله، سيطر موعد الغَدِ على تفكيره، فقد نسي كلّ شيء إلا هذا الموعد، توجّه إلى الله بالسؤال والدّعاء بأن يُيَسّر الأمور لإتمام هذا اللقاء، الذي انتظره بفارغ الصبر.
كان يغفو ويصحو تلك الليلة، تقلّب في نومه كثيراً.. ينتظر بزوغ الشمس بفارغ الصبر، كم طال ذلك الليل عليه! بزغت الشمس وعاد التفكير بالموعد المنتظر، ينظر إلى ساعته باستمرار، أحسّ بأنّ الزّمن توقف،

يضرب بيده على ساعته ليتأكّد بأنّها صالحة، يستحثُّها على التقدُّم والإسراع، إلاّ أنّها لا تستجيب. عند الظّهيرة.. ذهب إلى الحلّاق وقام بقصّ شعره، عاد إلى البيت. استحمّ ثمّ ارتدى أجمل الثياب، وزاد من رش العطر، وضع منديلاً مثلّثاً، أحمر اللون في جيب جاكيته، أضاف دبّوساً مائلاً لربطة عنقه، وأزراراً ذهبيّة لأكمامه، بدا كعريسٍ في ليلة عرسه.
خرج صالحٌ قبل الموعد بساعة، وصل هناك، جلس منتظراً يرقُب مدخل المطعم، تسمَّر نظره على الباب، وبعد ربع ساعة ظهرت رشيدة بمشيتها الهادئة، أناقتها ومظهرها يُلفتان النّظر، تلبس أجمل الثياب.. دخلت وعينيها ترنو إلى تلك الطاولة.. طاولة الأحبّة.. ارتسمت على شفتيها ابتسامة لطيفة، فقد رأته يجلس هناك، وقف.. خطا بعض الخطوات للقائها واستقبالها،
أزاح لها الكرسي لتجلس، وقال: كم أنا سعيد يا رشيدة.. تفضلي واجلسي...
رشيدة - وأنا أسعد.. فتلك الأيام التي مضت كانت شديدةٌ عليّ ومُرّة...
صالح - بل شديدةٌ علينا..!
احمرّت وجنتاها فزاد الجمالُ جمالاً فوق جمالها، بدتْ كفراشة تلوّنتْ زينة وبهاءً، بدت السّعادة باللقاء، أسرَّ لها بإعجابه بجمالها وزينتها، يُتأتؤون في حديثهم خجلاً، أخبرها بأنّ قلبه يرقص فرحاً لحضورها، تبادلا كلمات رقيقة، وبعد دقائق قليلة، نادى صالحٌ على "الجرسون" وطلب من رشيدة أنْ تُحدّد نوع الطعام الذي تفضله. لكنّها قالت له: "أطلب على ذوقك". طلب غداءً يليق بحضورها.. تبادلا خلاله الحديث الجميل.. تكلّما عن نفسيهما كثيراً.. وجدا توافقاً بينهما.. قدّم لها معلومات كثيرة عن نفسه وأسرته.. أخبرها بأنّه قد بنى بيتاً متواضعاً فوق بيت أهله.. هو عشّ الزوجية المنتظر.. تحدّثا بصوتٍ خافتٍ يصل حدّ الهمس، كُلٌ منهما ينتظر سماع الآخر.. حاولا أن يطيلا فترة غدائهما.. ليكسبا مزيداً من

الوقت والسعادة الغامرة، ولكن الوقت سرقهما ، فقد كان يمضي سريعاً..! وبعد حين اعتذرت منه وطلبت العودة إلى البيت.
كانت لقاءاتهما قليلة، بسبب تباعد سكنيهما.. هو كان يقطن العبدلي، أمّا هي فقد كانت تقطن عمان الشرقية.. هذا البعد كان يؤجّجُ مشاعرهما ويقويها يوماً بعد يوم ليزداد اشتياقهما وتولُّعهما ببعضهما. انقضت ثلاثة أسابيع، استطاع صالح خلالها، إقناع رشيدة بإكمال الدّبلوم إلى البكالوريوس، وافقته على رأيه ووعدته بأن تقوم بالتسجيل لدراستها الجامعية.
أما علي فقد أكمل استعداداته لحفل الزفاف، كانت نبيلة تُسارع في التجهيزات، تحاول مساعدته ما أمكنها، حدّدا موعداً للزفاف.. أقاما حفلاً عائلياً متواضعاً.. وتزوجا.
كان صالح كلّما التقى برشيدة يعطي وقتاً للغزل.. وآخر لمتابعة دراستها، كانا يرسمان لوحةً فنيةً لحبهما السعيد، فكلما تفارقا من لقاء، زاد شوقهما للقاء آخر.
أما عليٌّ فقد بدأت همومه تزداد ومشاكله كذلك، حتى أنّ نبيلة أصبحت عصبيّة المزاج، حادّة الطباع، سريعة الغضب.
لم يظهر خلال الأشهر الأولى من زواجهما أيّة بوادرٍ للحمل، وبنصائح من الأهل ، ذهبا إلى الطبيب، وبعد عدة زيارات واختبارات أفادت التقارير بأنّ نبيلة "عاقر" ... كم حاول تصبيرها وملاطفتها ليخفّف عنها ما هي فيه! إلا أنها كانت تزداد عصبيةً يوماً بعد يوم، لاحظ الأهل كثرة مشاكلهما وكثرة غياب عليٍ عن المنزل. حاولوا التدخل ومعرفة الأسباب منهما، لكنهما كانا يتعذَّران بكثرة الديون ومشاكل الحياة التي أوصلتهما إلى ما هم فيه من مشاكل وصعوبات.
في مساء صيفيّ لطيف، ذهبت أم علي لزيارة جارتها أم حلا، كانت تودّ أنْ تبثّ همّها، وتشكو لجارتها ما وصل إليه وضع ابنها علي، فأمّ حلا

تحبّ عليّاً كثيراً، فهي تقول أنّها هي التي ربّته، وهي لا تفرّقه عن ابنتها الوحيدة حلا.!

أم حلا - والله عليٌ يحرق قلبي.. يا حسرة عليه!

أم علي - لكنْ.. والله يا أم حلا.. المخفي أعظم!

أم حلا - ها!.. ماذا!.. وهل هناك شيء جديد؟

أم علي - آآآخ!.. والله يا أختاه، كل يوم هناك شيء جديد.. لكنْ.. ماذا نصنع؟ فمنذ حوالي أربعة أيام أخذها لدكتور نفسي، وقال بأنّها ربّما تعاني من مشاكل نفسية!

أم حلا - ماذا تعنين؟.. هل هي مجنونة!

أم علي - والله.. وَصَلتْ فيها الأمور أول أمس، عندما طلب منها زوجها كأساً من الشاي.. قامت.. أحضرت الشاي وسكبته على الأرض، صاح بها، فرمته بالكأس.

وفجأة تدخل حلا على حوارهما وتقول (بعصبيّة واضحة) - "يطبش إيدها إن شاء الله".

أم علي - والله يا ابنتي.. حتى عندما تُخطيء.. يحاول أن يضع اللوم على نفسه.. تخيّلي!.. وعندما سألته: لماذا تعمل هكذا يا ولدي؟.. قال: "خليها على الله يا حجة.. اللي فيّ مكفيني.. لعل الله يهديها وتعقل.

أم علي - الله يرضى عليكِ يا بنتي.. ويرزقك ابن الحلال اللي يحبك ويصونك ويحترمك.. آمين يا رب.

قامت حلا من المجلس.. ذهبت إلى المطبخ خجلة مهرولة.. قلبها انفطر على عليّ الذي كان يلاعبها ويسعدها في طفولتها.!

أنهت أم علي زيارتها وغادرت ،دخلت بيتها وعقلها يفسّر ردود أفعال حلا.. جالت بخاطرها فكرة لطيفة.. لماذا لا تقوم بخِطبة حلا لعليّ ؟ قالت في نفسها: كأنّني أراها لأوّل مرة..! ويبدو عليها أنّها تحبه.. والجميع يعرف طبعها وسلوكها من جيرانها وأهل حارتها.. فهي مدبّرة في المنزل

ومحترمة.. كما أنّها متعلّمة وبانتظار الوظيفة.. لقد أكملت دراستها من الكليّة العربيّة.. كما أنها جميلة.. بشوشة.. واجتماعية.
قررت أم علي مفاتحة ابنها بالموضوع.. فتبديل العتبات من أسباب الرزق.. لعل الله يغير الحال بأحسن منه.
دخلت أم علي بيتها لتجد شجاراً بين ابنها وزوجته نبيلة .. نادت على ابنها وطلبت منه مرافقتها إلى غرفتها.. دخلت وأغلقت الباب خلفهما قائلة له:
اجلس يا ولدي واسمعني!
علي - أوامرك يا حجة؟
أم علي - إلى متى سنبقى نحتمل هذه الحياة ومشاكلها؟
علي - وما العمل يا أمي؟.. الله يصبّرني عليها بس
أم علي - لا يا ولدي.. نحن صبرنا وتحملنا الكثير.
علي - طيب!
أم علي - وخلاصة هذا الصبر.. ماذا ستكون برايك؟
علي - الله أعلم !.. هذه قسمتي ونصيبي يا أمّي الحبيبة...
أم علي – إذن سأبلغك بأمرٍ هام.. ضاعت.. ولقيناها!
علي - ما هي التي ضاعت.. وما هي التي لقيناها يا حجة ؟
أم علي - الآن عدت من دار أم حلا.. وكنت أجلس مع حلا وأمها.
علي - ها.. تفضلي يا أماه.. كلّي آذان صاغية.
أم علي - لقد أخبرت أم حلا عن مشاكل زوجتك، والذي تصنعه معك.. وكانت حلا جالسة.. والله.. اهتزّ بدنها من الذي يصيبك.. والخلاصة أن حلا على ما يبدو تحبك وتعزك.
علي - طبيعي فهي جارتنا.. و تربّينا سويًّا!
أم علي - الآن، جاءتني فكرة، أنت تعرف بأنّ حلا قد تربَّتْ بيننا، وأنت تعرفها تمام المعرفة، فلماذا لا نطلب يدها لك..؟ زوجتك شجرة لا ثمر منها...

علي - أُتركي لي هذا الموضوع.. دعيني أفكر فيه قليلاً. " قالها وبعض السّعادة تغزو ملامحه " .
في صبيحة اليوم التالي.. كان علي يفكر في حديث أمه وخلال الدوام، تشاور مع صديقه صالح بالأمر.. لم يتردد صالح بالثناء على الفكرة.. لا بل شجعه عليها كثيراً .. فحياته بتراجع مستمر.. ومن سيء إلى أسوأ..
نظر علي إلى صالح بتمعّن، مفكراً فيما قاله وتطابقه مع أقوال أمه.. هزَّ رأسه.. وسأله: وأنت ما هي أخبارك مع رشيدة؟
ضحك صالح ضحكة عالية وضرب بيده على مكتبه وقال متباهياً: يا رجل هذه البنت، لم يخلق الله منها سوى نسخةٌ واحدةٌ فقط.. هي رشيدة!
علي - لأنك أنت أيضا نسخة واحدة. أليس كذلك؟
صالح - أكيد يا رجل، كلّ يوم اكتشف فيها صفات أجمل من الذّهب، كما أنني وعدتُّها بعد إتمام السنة الأولى أن أقوم بخطبتها بشكل رسمي من أهلها، و ننتظر عاماً واحداً، ونتزوج إن شاء الله، سأبدأ فوراً بالتأثيث والتجهيز للبيت.
علي - يا سيدي.. أتمنّى لكما التوفيق من كل قلبي.
مضت ثلاثة أيام، وأم علي تستحثّه على الجواب، وفي اليوم الثالث كانت نبيلة قد طلبت من علي أن تقوم بزيارة والدتها المريضة، أذن لها.. وطلب منها المبيت عند والدتها حتى تساعدها في أعمال المنزل.
ذهبت نبيلة، وفي المساء جلس علي مع والده ووالدته. قال علي: في الحقيقة.. أنني فكرت كثيراً بالموضوع يا والدتي الحبيبة!
الوالدة - ممتاز.. وما هو رأيك؟
علي - أنا أرى أنه بقي لها في ذمتي أمر واحد.
الوالد (مستغربا) - وما هو؟
علي - سأُخيّرها بين البقاء أو الطلاق، بعد أن نَرقيها.

خرج علي لأداء صلاة العصر، في الطّريق، التقى بالشّيخ "أبو حذيفة"، سلّم عليه، واستأذنه بالحديث بموضوع زوجته "نبيلة"، وطلب منه أن يقرأ عليها الرُّقيا.
أبو حذيفة - بعد الصلاة بساعة، تقوم بإحضارها إلى البيت عند خالتك أم حذيفة، وسنرى ما نحن فاعلون.
وصل علي ونبيلة في الموعد المحدد إلى دار الشيخ أبي حذيفة، وذلك بعد عودة زوجته من بيت أهلها.
رحب بهم الشيخ، وطلب من علي توضيح الأمر له، ليرى ما هو المناسب لها، قام علي بالشرح عن معاناته مع زوجته شارحاً مواقفه منها وتحمّله لسوء عشرتها وسلوكها المتناقض ، علّها تتغير وتتحسن، ولكن.. بلا جدوى.. لا بل إن الأمور تزداد سوءاً وهي تزداد شراسة.. وأكد له بأنه أخذها لطبيب نفسي، لكنّ الطبيب أكدّ له سلامتها من أيّة أعراض نفسية.
هزّ الشيخ رأسه، طلب منها الجلوس بقربه وإغماض عينيها لتُحسِن الإنصات لما يقرأ، والتّركيز على ما تسمعه من قرآن، وبعد الإنتهاء من الاستماع.. طلب الشيخ من نبيلة أن تذهب مع زوجته إلى الغرفة المجاورة، لأن له حديث مع علي.
الشيخ أبو حذيفة - اسمع يا عمي يا علي - هذه المرأة، لا تعاني شيئا.. وحالتها أفضل من حالتي.. الآن ستأخذها وتعود بها إلى البيت.. لكنني أود أن أخبرك بشيء يا ولدي.. وافهمها كما تريد.
علي - تفضل يا عمي.. أنا رهن إشارتك!
الشيخ أبو حذيفة – " يا عمي هذا دلع نساء.. وما بربّي المرة إلّا مرة مثلها، غادر الآن مصحوبا بالسلامة وسلم على أهلك ".
غادر علي وزوجته دار الشيخ، أوصلها إلى المنزل، عاد أدراجه إلى صديقه صالح، جلس عنده شارد الذهن.. مشتت الأفكار.. لا يستطيع التركيز في حديثه، فهم صالح أنّ علياً يعاني من خطب ما.

صالح - ما بك يا علي؟.. لدي إحساس بأن لديك ما تقوله، كأنّك تحمل جبلاً على ظهرك.. هيّا تكلم وفضفض!
علي - والله يا صالح، أنا أعيش في متاهة، ولست أدري ماذا أعمل.
صالح - هات.. تكلم.. وفضّي بالك.. أنا أخوك ومش غريب عنك.. همّنا واحد.. وفرحنا واحد.. هيّا قل ما لديك، لعلّي أستطيع مساعدتك.. فضفض!
علي - اااخ يا صالح.. ماذا أقول وماذا أحكي، الأمور ليست على ما يرام، والوضع يزداد سوءاً...
صالح - حسناً.. وما هو رأيك بحلا؟
علي - والله حلا لا يوجد فيها ما يُعيبها.. حتى أنني فهمت أنها مستعدة أن تتحمل كلُّ شيء من أجلي.
صالح - (عليك بها يا غلام .. ولا تتأخر كثيرا)، عُد من فورك إلى بيتكم.. وقل لأبوك ولأمك: أنا موافق.
صالح ينعم بسعادة بالغة بتعرّفه على رشيدة، لا يتركان فسحة من الزمن، إلا ويحاولان استغلالها في سعادتهما. اقتربت نهاية العام الدراسي الأول لرشيدة.. أعلمها بأنّه سيقوم بزيارة إلى والديها، هو ووالدته ليطلب يدها ولإعلان الخطوبة، وفعلاً لم يتردد "عمر" والد رشيدة بالموافقة على الطلب.. تمّ إعلان الخطوبة وكتب الكتاب.. على أن يتم الزواج بعد عام من إعلان الخطوبة، كم كانت سعادتها كبيرة بهذه الخطوبة.. فكانا كعصافير الحب.. حبيبان ليسا بالقفص.. لكنّهما سعيدان.. سعادتهما أضفت بهجة لحياتهما.. فكان كثيراً ما يتحدث صالح لصديقه علي عن خطيبته وسعادته بها.. كما أنّ الله أنعم عليه بفتاة لم يكن يحلم يوماً بأن تكون كرشيدة.
بدأ عليٌّ يُفكّر في أمر زواج صالح ورشيدة الذي اقترب ولم يعد يفصلهم عنه سوى أسبوعين. زواجه من حلا أسعده سعادة كبيرة، فقد بدأ هو

الآخر يرى من حياته الوجه الجميل.. والسعادة الغامرة.. حتّى كاد أن ينسى بأن له زوجة أخرى اسمها نبيلة.
رتبّ صالح ورشيدة لحفل زواج بهيج، أمّا ما كان يسمّى بصندوق العروس، فقد كان من أهم ما تمّ توفيره قبل الزواج، كان يحتوي على أهمّ مقتنياتها، بداخله صندوق صغير يحتوي على مجوهراتها وصورتها التي كانت تحملها يوم النّكسة.
ذات يوم .. دخل علي إلى البيت فرحاً، مسروراً.. يكاد يطير من على الأرض ليجد الجميع يجلسون في صالة بيت والده، كانت البسمة ترتسم على شفاه الجميع منهم إلا نبيلة، فالكشرة لا تفارق محيّاها، وكما يقولون: **(بوزها شبرين)**.
وقف علي.. نظر إلى الجميع .. ابتسم ابسامة المنتصر وقال: اسمعوا ما كتبت عن حياتي وزوجاتي، فقد أنهيت اليوم قصيدتي هذه..

عفواً ربّي..إنّي مللتُ حياتي
حتى رجوتُ من الإلهِ مماتي
أفنيتُ عمري في هواكِ مذلةً
فلعنتُ عمري في هواكِ وذاتي
إنّي سأحرقُ كلَّ ماضٍ ضمّنا
كي تنثريهِ.. ففيهِ بعضُ رفاتي
فلَقَد شقيتُ بزوجةٍ تأبى الهنا
ما عدتُ أعرِفُ أن ألُمَّ شتّاتي
دافَعتُ عنها بالهوى إن أذنَبَت
فَجَعَلتُ من زلّاتها .. زلّاتي
ونظرتُ للمرآة .. ثمَّ كسرتُها

قد أنكَرَت وجهي .. أنا مرآتي
هذي حلا..والكلُّ يعرِفُ مَن حلا
أبهى من الأنوار للنَّجمات
حَلَّت حلا في خافِقِي فَحَصَّنتُها
فإذا بها الأملُ الجميلُ الآتي
جاءَت حلا لِتَمسحَ كلّ همٍّ مسَّني
فهي المنى وحبيبتي وحياتي
ما كنتُ أعرفُ يا حلا ما تصنَعين
إذا استَمتَعتِ بليلةِ أنّاتي
هيّا لنسرق من جمالِ زماننا
أمَلاً لأَدفِنَ عاصِفَ الآهاتِ
ودَعي زماناً قد حرِقتُ بجَمرِهِ
هيّا لِنَحيا للزَّمانِ الآتي
(توفيق جاد)

كانت وقفة علي تُشعرُهُ بنصر مبين، لأول مرة يساوره إحساس بأهميته في العائلة، الكل يُنصت باهتمام بالغ لما يقول، أحسّ بأنه الآن أصبح صاحب قرار، وهو يتّخذ قراره.
انتهى من قراءة قصيدته، والجميع ما زالوا يصغون باهتمام لما يقوله علي، أشاح ببصره عنهم.. استدار قليلاً.. وواجه نبيلة، ابتسم ابتسامة صفراء. هنا.. أصبح صمته يقتلهم، هو يستعدّ لحديث جديد، لكنّه لا ينطق ولو بكلمة، بعد لحظات قال لنبيلة: الآن قومي واذهبي إلى غرفة نومك، سألحق بكِ بعد لحظات، قامت نبيلة متثاقلة، وغادرت دون أن تنبُسَ ببنت شفة!
عاد علي للحديث فقال: اليوم يا والدي، وبعد قليل سأتخذ قراراً حاسماً ومهمًّا في حياتي وحياتكم، سأوافيكَ بتفاصيله بعد ساعة من الزمن.

ذهب إلى غرفة نبيلة، هناك.. وجدها تجلس أمام مرآتها تنظر إلى نفسها، وكأنها تحاول تحليل شخصيتها، كان كلّ ما يجول في خاطرها هو مجيء علي، تساءلت في قرارة نفسها: ماذا يريد علي؟ قصيدته آلمتني، فقد امتدح حلا كثيرا.. هل؟ وهل؟ وهل؟
تساؤلات كثيرة أخذت تتردد على تفكيرها، قطع شرودها دخول علي، ليقول لها بكل رباطة جأش.. نبيلة...
نبيلة - ماذا تريد؟
علي - أريد أن أخبرك بشيء!
نبيلة - أكثر من الذي قلته؟
علي - نعم..
نبيلة - ماذا تريد؟ هيا تكلّم!
علي - لقد اتخذتُ اليوم قراراً.. يكفينا ما نعيشه من نكدٍ وهمّ، لذلك أقول لكِ "أنتِ طالق"!
نبيلة - ما الذي تقوله!
علي - قلت: "أنتِ طالق".. أظنك تسمعينني جيداً، والآن اجمعي أغراضك وملابسك كي أقوم بإيصالك إلى بيت أهلك.
كان قد وَقعُ الخبر على نبيلة كالصاعقة، لم تكن تتوقع أن تسمع خبر طلاقها، لم يصدر عنها أيّة ردود أفعال، سوى أنَّ الدهشة عقدت لسانها، لم تتوقع يوماً أن يكون قراره هو الطلاق فحبّه يوحي لها بأنّه لن يستطيع أن يتركها يوماً، صمتت دقائق قليلة.. نهضت.. وبدأت تقوم بجمع أغراضها والدموع تنهمر من عينيها بصمت، ذهب علي لينتظرها عند أهله، وهناك أبلغهم بقراره، سُرَّ الجميع بخروج نبيلة من حياته وحياتهم.
قدَّم صالح على إجازة ليوم الخميس؛ هناك سعادة بالغة تنتظره، هو يوم تخرُّج رشيدة من الجامعة، كم كانت سعادتهما بالغة في هذا اليوم، لقد أكملت دراستها الجامعية الآن.. طلب صالح من أهله وأهلها المكوث في المنزل، حتى يعودوا ثم يقومون بالاحتفال جميعًا.

في صبيحة يوم الخميس أفاقا من نومهما باكرا، كان الإرباك بادياً على مُحيّا رشيدة، تذهب في البيت جيئةً وذهاباً، ولا تدري ماذا تفعل.
كان صالح يجلس يحتسي قهوته التي أعدَّها بنفسه، ينظر إليها مبتسماً، يقهقه عند كل حركة مربكة من رشيدة، خاصّة عندما سألته عن ثوبها الذي كانت تحمله بيدها، يطلب منها الهدوء، لكنها كانت تستعجله في تحضير نفسه.. فشوارع عمّان مليئة بأزمات السير.. واليوم هو يوم تخريج طلبة الجامعة الأردنية، وبلا شك بأنه سيكون هناك ازدحامٌ كبير على سيارات الأجرة، وفي الطريق أيضاً، وسيكون برعاية ملكيّة، فكما تعلمْ بأنّ جلالة الملك الحسين بن طلال (رحمه الله) سيقوم بتخريج الطّلبة، وهذا سببٌ آخر لوجود أزمات السّير، لكنّ صالح طمأنها بأنّ صديقه د. فالح سيحضر ليصحبهما في سيارته السوداء الفارهة.
كان د. فالح قد أنهى دراسة الطب في الخارج، عاد ليتم تعيينه في مستشفى البشير، كان ثراؤه واضحاً، حتى أن والده كان قد أهداه سيارة جديدة يوم تخرّجه وعودته للوطن.
كان شاباً ذكياً، أنيقاً، وجذّاباً؛ امتاز بهدوئه وحبه للحياة ورفاهيتها، يلبس أجمل الثياب، يحمل في يده سلسلة طالما لعب بها، كان يلفّها على أصبعه السبابة، ثم يعود ويحلها، وهكذا...
بدأ طابور الخريجين بالاصطفاف، هناك فتاة شقراء ذات شعر أملس مسترسل، ممشوقة القوام، تتبختر في مشيتها الجذابة، كأنّها طاووس يختال في مشيته، بدا ثوب التخرج عليها قصيراً إلى حدٍّ ما وذلك لطول قامتها.. لكنّ ما تلبسه تحت الروب وما ظهر دلّ على تواضع لباسها.
من المؤكد أنها فقيرة.. ففي هذا اليوم، "والذي لا يسبقه في حياة الفتاة سوى يوم الزفاف"، تجد أن كل فتاة تلبس أجمل ما لديها وأفخمه، أشار صالح بإصبعه إلى رشيدة وقال للدكتور فالح: أنظر يا فالح! ها هي رشيدة هناك.. تراقص حاجباه غبطة وفخراً، حينما شاهد حبيبته بين صفوف

الخريجين، كالعصفور الذي يتلاعب بذيله فَرِحاً، ناسياً أنّ د. فالح يقف إلى جانبه.
د. فالح - أين هي يا رجل؟ أنا لا أستطيع تحديد مكانها!
صالح - هناك .."مؤكداً ومشيراً بإصبعه ثانية"
د. فالح أين بالضبط ؟ لا أستطيع تحديد مكانها!
صالح - هي قريبة منّا يا رجل!
د. فالح -هل هي التي على يمين الفتاة الشقراء؟
صالح - نعم.. وتلبس "شالاً" أزرق اللون...
د. فالح – ولكن.. من هي البنت التي بجانبها، تلك الفتاة الشقراء، أتعرفها؟
صالح - نعم .. فهذه صديقتها المقربة "ياسمين"
د. فالح - فعلاً أنها ياسمينة "همس بصوت منخفض"
صالح - ماذا تقول؟
د. فالح - لا.. لا شيء مهم، لننتظر التخرج الآن.
بعد انتهاء حفل التخرج، جاءت رشيدة ومعها صديقتها ياسمين، التقاهما صالح و د. فالح، قدَّمت رشيدة صديقتها إلى الدكتور فالح وقدَّم صالح صديقه إلى ياسمين.
رحّب بهما فالح ومدّ يده للسلام على رشيدة، سلمت عليه وبارك لها تخرّجها، رمق ياسمين بنظرة استحسان، فضحته عيناه حتّى أن صالح ورشيدة لاحظا ذلك، عندها قطع صالح حبل أفكارهما، وقال: هيا تفضلوا لنذهب إلى البيت، الكلّ بانتظارنا للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة..
د. فالح - نعم هيا.. تفضلوا
ياسمين - أنا أستأذنكم فوالدي ووالدتي بانتظار عودتي لنستكمل فرحتنا.. عليَّ أن أعود بسرعة!
رشيدة - لا تقلقي سنأخذك معنا.. فالدكتور فالح أحضر سيارته واصطحبنا معه، ونحن أيضا سنصحبك معنا، ثم سنذهب إلى البيت لتقديم الحلويات لكم وللعائلة.

مدّ صالح ذراعه لتستند إليها رشيدة، كما يفعل مربو الصّقور، كنوع مِنْ أنواع الأدب أو " الإتيكيت " في المعاملة، لإعلان احترامه وحُبّه لها أمام صديقه وصديقتها، غادروا المكان، وقبل وصولهم للسيارة بأمتار بدأت رشيدة بالتقيؤ، وأصابها دوار شديد، أمسكت بكتف صالح بقوة ، طلبت منه الذهاب بها إلى المستشفى فوراً.
ذهب الجميع معها، هناك اهتم بها الأطباء كثيرا، حاولوا إنجاز فحوصاتها بسرعة كبيرة، حيث أنّ الدكتور فالح يعمل في نفس هذا المستشفى.
بعد دقائق قليلة جاءت النّتيجة.. بشَّر الطبيب صالح بأنّه ينتظر مولوداً جديداً، وعن قريب سيصبح أباً، قام بكتابة وصفة طبية تحتوي على أدوية مقوّية، سُرَّ الجميع بالخبر، باركوا لرشيدة وصالح، انطلقوا عائدين إلى المنزل والفرحة تملأ قلوبهم جميعاً.
كانت السيارة تسير في شوارع عمّان وكأنها حمامة سوداء. انحرف د. فالح عن الطريق المعهودة، نظر إليه صالح، وسأله عن وجهته، ابتسم د. فالح ولم يجب، نظر إلى صالح، وابتسم ابتسامة طمأنَة لصالح، واستمر في طريقه، بعد قليل توقف وترجّل من السيارة.. غاب بضع دقائق ثم عاد، فتح خزانة سيارته الخلفية ووضع فيها شيئاً ما، ثم عاود المسير متّجهاً إلى بيت صالح.
حاولت ياسمين أن تستأذنهم بالمغادرة فوراً، لكنّ رشيدة أصرَّت عليها أنْ تشاركها فرحتها ولو لدقائق قليلة. وافقت ياسمين، ودخلت للبيت، إلّا أنّ د. فالح تأخّر عنهم لثواني معدودة، فتح خزانة سيارته وأخرج ما بها، ثم لحق بهم.
كان الأهل مجتمعين يستمعون لأغنية عبد الحليم حافظ " وحياة ألبي وأفراحه" من المذياع، هذه الأغنية الّتي تُذاع دائماً بمناسبات النّجاح والتخرُّج، ردّدها الجميع مع المذياع:

(وحياة ألبي وأفراحه.. وهناه في مساه وصباحه

ما لقيت فرحان بالدنيا.. زي الفرحان بنجاحه

كان حلم جميل في خيالنا.. ولا غابش في يوم عن بالنا

وبنالنا قصور.. وفرشنا زهور.. لحياتنا ومستقبلنا..

ولقتني فِ عزّ هنايا.. والدنيا فرح ويّايا

بتهنّي حبايبي معايا وتقول للكل ارتاحوا

ده ما فيش فرحان بالدنيا.. زي الفرحان بنجاحه

الناجح يرفع إيده.. ويغني في عيدنا وعيده

ويقول ونقول ..دايماً.. ناجحين على طول .. دايماً)

أراد صالح التحدث ، لكن د. فالح استأذنه بالتّكلم قبله، قدَّم هديته والتي كانت عبارة عن سرير طفل، وأعلن عن الفرحة المزدوجة لرشيدة وصالح ، فرحة التخرج والحمل، بارك للخريجات واصفاً ذلك اليوم بالتميّز والسعادة للجميع.
التفت إلى ياسمين.. بارك لها مرة أخرى بمناسبة تخرُّجها وحَمْلها، بينما قدّم صالح لرشيدة خاتماً من الذهب لم تكن رشيدة تعلم به.
فرح الجميع.. تناولوا الحلوى.. استأذنت ياسمين بالذهاب لتُفرح والديها، وكذلك استأذن د. فالح ليُتيح لهم أنْ يفرحوا بمناسباتهم. يومٌ بدا وكأنّه يوم

عيدٍ لياسمين وصالح، بدأ صالح يتراقص فَرِحاً أمام ياسمين، يمُرُّ بكفّه برفقٍ على بطنها ويقول: هنا يسكن ولدي عايد..!
خرج د. فالح وياسمين، استأذنها أن يوصلها لبيت أهلها ، لكنّها رفضت ذلك، معللة أنّه غريبٌ عنها، ولا يصحّ أنْ يقوم بإيصالها بسيارته، فربما يراها أحد الجيران معه، فيُساءُ لسمعتها.
أصرَّ د. فالح على أن يوصلها، وأخبرها بأنه سيتوقف لإنزالها على مسافة ليست بعيدة عن بيتها، وأخيراً.. وافقت ياسمين، انطلقا، ولم يفوّت لحظة إلّا وحاول أن يستغلّها، ليعرف عنها معلومات خاصة بها وبأهلها، لم يُخْفِ إعجابه بها، طلب منها أنْ تزوره في عيادته في المستشفى القريب منْ بيتها، فهي من سكان الأشرفية التي يقع فيها المستشفى. أمّا هو، فقد كان يقيم في منطقة الشميساني، وصلوا قريبا منْ بيتها.. طلبت منه التوقف.. طلب منها أن تُشير له إلى بيت أهلها ففعلت، ترجّلت وبدأت بالمسير، لكنّ د. فالح بقي واقفاً ينتظر وصولها البيت، رآها تفتح الباب وتدخل، فتأكد له مكان سكنها واطمأنّ عليها.
مضى يومان على هذا اللقاء، وفي مساء اليوم الثاني كان د. فالح مناوباً في قسم الإسعاف والطوارئ، جاءته حالة لرجل مُسِنّ يعاني منْ ضيقِ التّنفس، بادر بإعطائه الأكسجين مع تبخيرة ليرتاح بها، بدأت حالة الرجل العجوز بالاستقرار والتحسُّن، عاد الدكتور فالح ليتأكد منْ حالة المريض، بُهِتَ حينما رأى ياسمين تجاور السرير، تُمسك بيد العجوز بيديها لتحتضنها بحنّيةٍ ورفق، نظر إليها الدكتور فالح مندهشاً، وسألها: ماذا تفعلين هنا يا آنسة؟
ياسمين - مرحباً دكتور.. الوالد تعبان...
د. فالح - ألف سلامة.. أظنّه الآن بحالة أفضل
ياسمين - سلَّمك الله يا دكتور
أزاح الطبيب قناع الأكسجين عن وجه العجوز، وبدأ يكلّمه: مرحباً عمّي...

العجوز - أهلاً يا ولدي
د. فالح - كيف أنت الآن؟
العجوز- الحمد لله.. أنا بحالة أفضل...
د. فالح - هل تشعر بارتياح في نَفَسِك الآن؟
العجوز- الحمد لله.. تحسَّنتُ كثيراً.. وها هو تنفسي يعود طبيعياً، أشكرك يا ولدي.
د. فالح - العفو يا عمّي.. والآن سأكتب لك على بخّاخ وعلاج، كي تستعمله عند إحساسك بضيق تنفس وتعب
العجوز- بارك الله فيك يا بُنيّ
د. فالح - العفو يا عمّي
طلب الدكتور فالح من ياسمين أن تتْبعَه لاستلام الوصفة الطبّية، لم يكن هناك مجال للحديث، فالمرضى كُثُر، كتب لها رقم هاتفه في المنزل واستأذنها بلقائه ومشاركته غداءً بالمطعم، وطلب منها أن تتصل به عندما يسمح وقتها بذلك، وهو من سيَحضُر لاصطحابها للغداء معاً.
حاولت أن تتمنّع في البداية، لكنَّها ما لبثت أن وافقت، ربما حتى لا ينتبه لهما المراجعون، وربما أنها أحبت هذا اللقاء وتمنته.
في الصباح، ذهبت ياسمين إلى رشيده، لتخبرها بما جرى بالأمس بينها وبين الدكتور فالح، ثم الذهاب لتقديم طلب إلى سفارة دولة الإمارات العربية المتحدة من أجل التوظيف. لاحظت ياسمين غياب والدة صالح وأخيه ماجد عن البيت، سألت رشيدة عنهما، أخبرتها بأنّهما قاما بالسّفر إلى أمريكا بدعوة من أخ زوجة والده وأنّ غيابهما سيطول.
لمْ أنَمْ طيلة ليلة الموعد.. في صباح ذلك اليوم، نهضت من فراشي باكراً، رغم زقزقة العصافير، وصوت حفيف الأشجار الخفيف، والصباح الرومانسي النديّ، إلا أنّ الارباك كان يُسيطر علي، عندما التقيته، ضحكت لي الدنيا بكلّ ما فيها، كنت أحسّ بأنّ الكوْن يبتسم لي، وأنا أملكه، أرى نفسي فراشة تتنقل بين الأزهار، قلبي يرقص فرحاً، أسمع

دقّاته بانتظام، تمنيت لو لم يأتِ الوقت الذي اضطررنا فيه إلى المغادرة. كانت الزهور الاولى التي زرعناها في حديقتنا. اليوم.. نحن نرشّها بعذب الندى، نسقيها على مهل، وهي تنمو وتكبُر. سنقطفها معاً، لنزرع وروداً في حديقتنا الكبرى، منذ ذلك اليوم والسعادة لا تفارقني.
كانت رشيدة منسجمة في سرد ذكرياتها الجميلة مع صالح، والفرح يلفُّها، واضعة يدها اليمنى على بطنها، تتحسّسه برفق.! هذا هو مرض القلوب وعلاجها يا صديقتي.. هذا هو الحب..!
ياسمين - هههههه.. على رسلِكِ لقد ابتعدتِ كثيراً!
رشيده - اذهبي يا ياسمين لا تترددي.. سيكون أجمل لقاء.. ولن تُنْسى ذكراه.. هذا ما أتوقعه!
ياسمين - حسناً، وماذا سأقول لوالدي؟
رشيده- أخبريه بأننا سنذهب للغداء معاً في مطعم قريب، وسأطلب من صالح أن نذهب معكم.
ياسمين - لنفس المطعم! وستجلسون بعيداً عنّا طبعاً.
رشيده - أكيد.. وهل نحن عوازل حتى نجلس معكم؟
عادت ياسمين إلى بيتها.. جلست مع والدها وقالت: أبي.. أريد أن أذهب اليوم مع صديقتي رشيدة، لتناول طعام الغداء في أحد المطاعم القريبة من هنا، ولن أتأخر عليك.. ها.. ما قولك؟
سرح والدها بفكره، عائداً إلى سنوات خلت.. عاد بذاكرته إلى فلسطين.. طوى فكره سنواتٍ من عمره بثوانٍ معدودة . استذكر يوم كان يعمل مقاولاً، وكيف أنّ حياته كانت سعيدة هانئة.. لم يكن يضنُّ على أسرته الصغيرة بشيء.. جاء الاحتلال، تدهورت حالته المادية، فقد انقطع عن العمل، هو من النّاس الذين هُجّروا إلى عمان، لم يستطع التأقلم مع هذا الواقع الجديد، توقّف عن عمله، قام ببيع ممتلكاته من معدات و آليات، بدأت الحياة تأكل مدخراته بنهم شديد، قام بفتح بقالّة متواضعة، لم تكنْ هذه البقّالة تحوي الكثير من المواد.

أعداد السكان قليلة، والبقالات كثيرة، فما يجنيه هو القليل جداً من المال، نادراً ما كان يأتي أحدهم للشراء، مدّخراته بدأت تتآكل وتتناقص، فأعباء الحياة كانت كما النار في الهشيم، حتى أصبح فقير الحال، تهاجمه الأمراض من كل حدْبٍ وصوب، يستمر التراجع في وضعه المادّي والصحي، يهبط مستوى معيشته، بات من الفقراء والمعوزين.
نادته ياسمين قائله: أبي.. حبيبي.. إلى أين وصلت؟.
تنهد الأب تنهيدة عميقة ثم قال: هيييه.. حياة!
ياسمين - ما بك يا أبي؟
الأب - لا شيء يا ابنتي.. لا تأخذي ببالك، لكن.. يا ابنتي .. أنتِ تعلمين بأنني لا أرفضُ لكِ طلباً...
ياسمين - لا عليك يا والدي، صديقتي رشيدة هي التي قامت بدعوتي.. فهي من ستتكفل بالدفع.. أعي تماماً ظروفنا وما نعاني...
الأب - إذن على بركة الله يا حبيبتي، اذهبي.. ولا تتأخري عليّ، فأخاف أن تُعاودَني الأزمة.
ياسمين- تسلملي يا أحلى وأطيب أب.. ومَنْ لي بالدنيا غيرك؟ لن أغيب طويلاً.. أشكرك يا والدي العزيز.
حضر الدكتور فالح إلى بيت صديقه صالح.. كانت هناك ياسمين تنتظر مع رشيدة وصالح.. اجتهدت أن تتميز في لباسها، لكنّه كان ينمُّ عن فقر واضح، حاولت رشيدة مساعدتها بتقديم بعض الإكسسوارات التجميلية لها.. تقبَّلت ذلك على استحياء.
في المطعم.. جلس كلّ اثنين على طاولة منفردة، كانت تفصلهم عن بعضهم مسافةُ مترين لا أكثر، رشيدة تُلقي السّمع وتسترق النظر إلى ياسمين، بدت علامات الفرح والسعادة على محيّاها، سُرَّت رشيدة كثيراً من تلك العلامات، كانت تهمس لصالح بابتسامة المنتصرة بأنّ الأحبّة الجدد توافقوا على ما يبدو.

حاولت ياسمين أن تُبدي عذرها عن تواضع لباسها وأناقتها، لكن د. فالح أبدى تفهمه لوضعها مبدياً إعجابه بها وبأناقتها، أسرَّ إليها بسعادته بها محاولاً التقليل من شأن لباسها.. قال لها: أنا يا حبيبتي أحببتك أنتِ، واللباس ما هو إلا قشور.. أنا سعيد بكِ، فجمالك يطغى على اللباس والزينة، إن ما تلبسينه تزيَّنَ بجمال شخصك ومحيّاك.

ياسمين- أنت لا تعلم بأنّ والدي كان مقاولاً كبيراً.. لكن شتاتنا بعد عام 1967، هو الذي أوصلنا إلى ما نحن فيه ، فأصبح حالنا كما ترى..!

د.-فالح - السعادة ليست بالمال وحده.. ربما أنّها تكتمل به ، لكنّ السعادة في حسن تبعُّل الزوجة واحترام الزوج لزوجته وحبّهما الذي يزيّن حياتهما مع أبنائهما.

مرَّ الوقت سريعاً، تبادلا خلاله التّعبير عنْ مشاعرهما، أبدى كلّ طرف حبّه للآخر، التقيا مرّات عدّة، ومع تعدّد اللّقاءات.. كانت بذرة الحبّ الّتي زرعاها تنمو وتكبر وأصبح كلٌّ منهما لا يُطيق بُعْداً عن الآخر، وذات لقاء في أحد المتنزّهات وبعد أن نفذ صبرُ د. فالح، صارحها بأنّه يودّ أن يتقدم لخطبتها قريباً، فأبدت تقبُّلها لهذا الأمر الذي أثلج صدرها ولم تستطع إخفاء فرحتها وابتهاجها بهذا الخبر. قدَّم لها بعض النقود ،حاولت الرّفض، لكنّه أصرَّ عليها، وقال مداعباً: أظنّ بأنّك الآن خطيبتي!

ياسمين - لكنني لا أستطيع شراء أيّ شيء الآن.. عليَّ أنْ أوضّح لأهلي مصدر هذه النقود.

د. فالح - معك حق.. احتفظي بها.. هي لك، ربّما تحتاجينها في وقت لاحق!

ياسمين - أنا شاكرة لك وسعيدة بأن الله تعالى رزقني بك...

د. فالح - بل أنا الأسعد.. أعدك أنْ يكون مستقبلنا مشرق وجميل، مليء بالسعادة والفرح، سأفرش كل طريق تسلكينه زهوراً وورود.. أعدك أن تعيشي الحياة كما تحلم بها كلّ فتاة.. وأن أكون لك كلّ الناس، وأن تكونين

كل حياتي. طلبت منه المغادرة والعودة إلى البيت، متعلّلة بأنّ والدها مريض، ووالدتها لا تقوى على خدمته وحدها.
عادوا والسعادة تملأ قلوبهم جميعاً، تهادت سيارة الدكتور فالح في شوارع عمان، ولم لا؟! هي تنقل أحبّة وعشاقاً.. هي تنقل من عرفوا العشق ويسعون لتتويجه، من جهة بزواج، ومن جهة اخرى بطفل منتظر لرشيدة وصالح.
مرّ أسبوع ثقيل على آخر لقاء بين ياسمين والدكتور فالح.. لقد انقلب حبّهما إلى عشق، لمْ يعودا يحتملان البعد عن بعضهما، لمْ يستطعْ الدكتور فالح صبراً، فتقدّم بصحبة والده ووالدته لطلب يدها، حين دخلوا وجلسوا، كانت ياسمين في غرفتها تسترق النظر والسمع من فُسْحة صغيرة بالباب، نهضت والدتها وذهبت إليها، طلبت منها أنْ تُحضر القهوة، بعد دقائق جاءت تحمل صينية القهوة وترتجف، حتى أنّ الفناجين كانت تصطكّ بالصحون، فيُسمع صوتها وكأنّها موسيقى نشاز، قدّمت القهوة إلى والد ووالدة د. فالح، انتقلت إليه، الاصطكاك يتزايد ليُسمع بشكل جليّ، وهي ما زالت ترتجف حتّى خَشي الحضور من انسكاب القهوة من بين يديها، كلّ العيون ترقُبُها، احمرّ وجهها خجلاً وقالت: تفضل... نظر في وجهها ويداه تمتدّان إلى الفنجان والصحن، ازداد خجلها واحمرّت وجنتاها، التقط فنجانه بهدوء وبطء شديديْن، نظره لا يُفارق عينيها الذابلتين، وكأنّهما سهمان يريدان اقتحام تلك العيون الذابلة، ارتشف الدكتور فالح ثلاث رشفات من فنجانه وعلى عجل، أعاده على الطرابيزة، واستأذن والده بطلب يدها، كان متعجلاً لدرجة نسي فيها بأنّ عليه أن يصمت حتّى يتكلّم والده، حاول والد ياسمين التردّد بالموافقة في البداية، بحجّة أنّ الدكتور فالح كان من الأثرياء وياسمين من الفقراء، لكن.. مع إصرار الدكتور فالح وقطعه الوعود بسعادتها، وحبّه لها على وضعها الحالي، جعل والدها يبدي موافقته على أن يأخذ رأي ابنته وموافقتها. تمّ الاتفاق على الخطوبة خلال أسبوعين. قام الدكتور فالح بتقديم أجمل كسوة لحفل الخطوبة، حجز

لها في صالون للتجميل، أقاما حفل الخطوبة في أحد الفنادق الرّاقية، كانت من أجمل حفلات الخطوبة التي تمّ خلالها عقد القران.
سعادتها ملأت الكون، بات الدكتور فالح دائم التواصل معها، كان كلّما التقاها أغدق عليها مالاً، حتى باتت تمتلك مدّخرات تُعدُّ كبيرة بالنسبة لها، ولكنّها لا توصلها إلى درجة الغنى، حاولت تحسين أوضاع أهلها، كلّ ذلك يتمُّ بإذنه وموافقته، تدّخر ما زاد عن حاجاتهم ، حتّى إنها قامت بفتح حساب لها في البنك لتضع فيه هذه الأموال.
الحج أبو فالح يُعْتبَرُ "شهبندر التجار" في منطقة عمان، تاجر أقمشةٍ بالجملة والمفرّق، يتمتع بثراء فاحش، ممتلكاته من الأراضي والعقارات كانت كثيرة، لم يضنّ الدكتور فالح بزيارة ياسمين، مقدما المال والهدايا لخطيبته وأهلها، طلب من والدها أن يصطحب خطيبته إلى السوق للتزود ببعض الملابس الجديدة، ذهب إلى معرض والده، عرَّف مسؤول المعرض على خطيبته.. طلب منه أن تأخذ ياسمين ما تريد ومتى تريد.
هذا الإغداق في المال والهدايا على ياسمين وأهلها، أعطاه في قلوبهم محبة واحتراما.. كانوا لا يرفضون له طلباً، يُسَرّون عند قدومه، هو يتميّز بحسن الخلق والعشرة ، ناهيك عن كرمه اللامحدود.
بعد شهر من خطوبتهما، حضر الدكتور فالح إلى منزل والد ياسمين ليُخبرهم بسفره إلى ألمانيا، من أجل التعاقد على شراء بعض الأجهزة الطبية، لتجهيز عيادته الخاصة بالقرب من منزله، ياسمين لم تعترض على هذا الأمر، وسألته: كمْ مِنَ الزّمن ستستغرق هذه الرحلة؟
د. فالح - لست أدري على وجه التحديد ، فأنا أريد معاينة الأجهزة وشراءها، ثم القيام بشحنها إن شاء الله ياسمين - وهل سيأخذ هذا منك وقتاً طويلاً؟
د. فالح - من أسبوعين إلى شهر تقريباً
ياسمين - توكل على الله.. قلبي وعين الله ترعاك.. ولا تنسَ أن تُديم التواصل معنا...

أعطاها مبلغاً من المال، استكثرته وحاولت أنْ لا تأخذه كاملاً، لكنّه أصرَّ عليها، وطلب منها أنْ لا تبخل بشيء على والديها وعلاجهم، ثمّ استأذن وغادر المكان حاملاً في قلبه وعقله حُبّ ياسمين وصورتها الوضّاءة ليكونا رفيقيْه في سفره وترحاله.

صالح ورشيدة يعيشان أجمل أيام حياتهما، سعادتهما كانت ترسم لهما صوراً جميلة لمستقبل واعد، بدأ الحمل يتعِب رشيدة فهي اجتازت نصف مدة الحمل بقليل، بدأت تظهر عليها علامات الحمل من بروز في البطن إلى انتفاخ في الوجه والجسم وبعضاً من بقع الكلف على وجهها، تواصلت مع الدكتورة أمل، طبيبة النسائية والتوليد البارعة جداً.

في آخر زيارة لرشيدة، طلبت منها الدكتورة أمل أنْ تكثّف مراجعاتها للعيادة، فالحمل يمرّ بظروف حرجة جداً ولا بدّ من الراحة والمتابعة الحثيثة للجنين.

مرّت الأيام ثقيلة في هذه الفترة على ياسمين ورشيدة، تأخرت عودة د. فالح من ألمانيا، واضطّر إلى متابعة سفره من هناك إلى بريطانيا، حيث أنّ بعض الأجهزة المتوفرة هناك أفضل وأحدث من تلك التي توجد في ألمانيا، وغيابه هذا أشغل فكرها وجعلها تعيش قلقاً طويلاً، أمّا صديقتها وحبيبتها رشيدة، فقد أتعبها الحمل، وأصبحت تعيش قلقة على استمراره وبقائه، إضافة إلى ظروف عملها وأعمال البيت الّتي كانت تزيدها رهقاً وتعباً.

اعتاد صالح مساعدة زوجته في أعمال المنزل ما أمكنه، فهو لم يكن يُجهدها أو يطلب منها القيام بأي عمل يتعبها ، حتى أنه تعاقد مع سيارة أجرة من أجل إيصالها إلى عملها في المدرسة والعودة منها، ومع ذلك فالقليل من العمل يُتْعبها، لا بل ويُرهقها.

في ساعة الفجر من يوم جمعة عاديّ، تصحو ياسمين على صوت والدتها تناديها أن تسرع لمشاهدة ما حلَّ بوالدها، نهضت من فراشها مسرعة، ذهبت لوالدها لتجد أنه يتنفس بصعوبة بالغة ومعاناة شديدة، أعطته حبة

من دوائه، وقامت بإعطائه البخّاخ، لكنّه لم يتحسّن، خرجت من البيت مسرعة إلى لطلب العون، تُهرول على غير هدىً، دقَّت باب جارهم أبو يونس، فجاءها صوت امرأة من الداخل: من هناك؟
ياسمين - أنا ياسمين...
المرأة - يا ساتر يا الله.
ياسمين - أريد عمّي أبو يونس حالاً، والدي مُتعبٌ جداً، ونريد نقله إلى المستشفى!
المرأة - حالاً.. عودي لوالدك، وسيلحق بك خلال دقائق قليلة، اعتني بوالدك ريثما يحضر.
وصلوا إلى المستشفى، لكنَّ أمرُ الله كان قدْ نفذ.. حاول الأطباء تقديم المساعدة له، لكن.. تبيّن لهم بأنّ المريض كان قد قضى نحبه، فكان اليوم الأول من آب، هو بداية الطريق لحياة سِمَتُها البؤس والشّقاء في حياة ياسمين، موت والدها كان بداية لرحلة العذاب والشّقاء.
أيّام صعبة ومليئة بالحزن والأسى أصبحت تسيطر على ياسمين.. غياب خطيبها أثقل عليها العبء، لكنّ جيرانها وأهل بلدها وأصدقائها، قدّموا لها كلّ مساعدة ممكنة. أحضروا الجثة من المستشفى، قاموا بتجهيز الجنازة والدفن وحتى بيت العزاء.
كانت رشيدة تحاول الوقوف إلى جانب صديقتها، لكنها كانت تذهب إليها لوقت قصير فقط، ثم تشعر بالإعياء، وتعود إلى البيت، جاراتها لم يكنّ يغادرنها إلا قليلاً خاصّة في بداية الأمر.
انتهى بيت العزاء.. لم تستطع رشيدة أن تعود إلى صديقتها بسبب الألم الشديد الذي بدأ يصيبها، فتمّ نقلها إلى المستشفى، أفادت الدكتورة أمل بأنّها تعاني من آلام المخاض، استغرب صالح من هذا الكلام، فحملها لم يكتمل بعد، أفادت الدكتورة أمل بأنّه أمرٌ طبيعي، أن تلد المرأة وهي في شهرها السابع.. هذا هو المولود الذي يسمى "سباعي".

مساء الخامس من آب عام، أزهرت الدنيا في عينيّ رشيدة وصالح، أشرق لهما صباح نديّ جميل، فلقد جاءهم مولود جميل بكامل صحته، مكتمل البنية، ملامحه ترمي كثيراً على والدته، اتفقا على تسميته بعايدٍ، تيمّناً بعودتهم إلى وطنهم الأصلي "فلسطين".
الكثير من اللاجئين الفلسطينيين كانوا لا زالوا يحملون معهم مفاتيح بيوتهم التي فقدوها في أحداث الـ"48"، كما أنّهم يملكون وثائق ملكيتهم لأراضيهم وبيوتهم، حتّى أن أسماء مواليدهم كانت تدلّ على تمسكهم بوطنهم وعودتهم إليه، وصل بهم الأمر بأن سمّوا مواليدهم بأسماء مدنهم وقُراهم، كانوا يتداولون حديثاً بينهم "وخاصة في المضافات مثل مضافة الحج محمود المختار" حول العودة، وبدل أن يعودوا إلى الساحل الفلسطيني، فقدوا باقي الأراضي الفلسطينية حتى نهر الأردن، ومع ذلك لا زالوا يقولون: " إن إخوتنا العرب لن يتركونا فريسة لليهود، سيتّحِدون قريباً ويقومون بتحرير الأرض من الغاصب، بل سيلقون باليهود في البحر الأبيض المتوسط"، قليل منهم من أيقن الواقع وعاشه، هؤلاء.. وبدعم ومساندة من إخوتهم الأردنيين ازدهرت حياتهم وتطورت بشكل كبير.

صالح ورشيدة كانا من الناس الذين تنبهوا للواقع والحقيقة، رسما طريقاً لمستقبلهم، بدأت حياتهما بالتحسّن، يغمرهما الفرح والسرور فباتوا يبنون لها على مهل.
عاد الدكتور فالح من سفره واتجه مباشرة إلى بيت ياسمين، كان لقاؤهما حاراً مفعماً بالشّوق، اغرورقت عيناها عندما شاهدته يقف على باب بيتها، تمنّت لو هجمت عليه لتحتضنه وهو يقف خارج البيت، لكنّ حياءها وأدبها منعاها من ذلك، فسألته بلهفة: فالح... ؟
د. فالح – كلّه...
ياسمين - حمداً لله على سلامتك

د. فالح - سلّمك الله يا حبيبتي
ياسمين - لمَ تأخّرتَ؟ كنت أنتظر عودتك لحظة بلحظة، من أسبوع لم يصلني منك ولا أيّ اتّصال! اشتقت لك كثيراً، انتظرتك كثيراً، ترقّبت الحمام الزاجل علّه يأتيني بخبر عنك، أصحو باكراً لأشُمَّ نسمات الصباح، أملة أن تحمل رائحتك مع نسماتها، أعود لأنام في فراشي، أنتظر حلماً يأتيني بطيفك فأفيق لا تسعني الدنيا لأنك كنت حاضراً، ولو في منامي..!
(كانت تعاتبه.. كما تعاتب طفلة والدها على تأخّره أو غيابه)
د. فالح - وهل سأبقى خارج البيت؟ لندخل أولاً ثم نتكلم!
ياسمين - حبيبي... شوقي إليك أنساني كلّ شيء، وفرحتي بعودتك أثلجت صدري.. حتى أنني من فرحي بلقائك، نسيت أن أقول لك تفضل!
كان الارتباك واضحاً على ياسمين، دخل الدكتور فالح، التقى بعمَّته، سلّم عليها، فقبَّلها وقبَّل يديْها ثمّ استدار للسلام على عمّه.. نظر حوله فلم يجده في مكانه، سأل عنه.. فأجهشتا بالبكاء، عندها عرف أنّ الله قد توفّاه.
قدّم عزاءه لهما، جلس ساعة من الزمن معهما، محاولاً مواساتهما ما أمكنه.. استأذن على أن يعود باليوم التالي لزيارتهم.
وصل بيته ومن فوره ذهب إلى والداه، سلّم عليهما، قبّل يديهما ورأسيهما، جلس بجانب والده وسأله: هل احتاج بيت عمّي أيّ شيء للعزاء يا والدي؟
- سلا يا بني، فلقد قام أهل المنطقة بالواجب وزيادة، قمت أنا بتقديم مبلغ من المال إلى ياسمين، وطلبتُ منها إعلامي بأيّة احتياجات لهم، وسأقوم بتوفير كلّ ما يطلبونه .
مضى ثلاثة شهور على وفاة والد ياسمين، حاول الدكتور فالح أن ينسيهما ألم الفراق، مرّات عدّة قام بمرافقتهما إلى المطاعم والمقاهي والمتنزّهات لتغيير أجوائهما، بذل جهداً بذلك، ذات مساء.. وفي لحظات السعادة، استأذن الدكتور فالح من عمّته وخطيبته، أن تباشرا بتجهيز نفسيهما من أجل التحضير للزواج، لم تعترض عمته، لكنّ ياسمين ترددت قليلاً، بسبب المدّة التي انقضت على وفاة والدها، هي اعتبرتها قصيرة.

لكنّ والدتها حثتها على الإسراع في الإعداد للزواج وقالت لها: يا ابنتي.. دعيني أفرح بكِ قبل أن أموت. هنا رقّ قلب ياسمين ودمعت عيناها، فبدأت حبات اللؤلؤ تتساقط من عينيها واحمرّت وجنتاها المبللتان بالدموع وهي تمسحهما برفق. نظرت إلى والدتها بحنان وعطف، احتضنتها بشدة، وقالت لها: سيكون لكِ كل ما تتمنينه يا أمي.. وأنا طوع أمرك ورهن إشارتك.. حدّدي موعداً وأنا عليّ التنفيذ.

طلب الدكتور فالح من عمته أن تحدد يوماً ليذهب هو وياسمين بصحبتها ووالدته إلى الشام من أجل شراء الكسوة للعروس، فهناك أكبر التّجار، وهم أصدقاؤهم ، ولديهم أقمشه أجود من التي عندهم، حاولت عمته الرفض، متحجّجة بأنّ عمان فيها الجيد والممتاز، إلاّ أنّ رغبة ياسمين والحاحها على والدتها، جعلها تُبْدي موافقتها.

بعد أسبوع قام الدكتور فالح ووالدته، وياسمين ووالدتها، بالسفر بسيارته السوداء قاصدين دمشق الفيحاء، التي تجمّلت فرحاً، باستقبال حبيبين يهيمان في بعضهما، بدت الشام وكأنّها تحتفل بقدومهم. كم كان سرور ياسمين وفرحتها بالذهاب إلى دمشق من أجل الكسوة، تستحثُّ د. فالح على الإسراع لتُكحّل عينيها برؤية الفيحاء التي لمْ تزُرها سابقاً، هي ستتفاخر بين صديقاتها وزميلاتها بأنّ كسوتها كانت من الشام . وصلوا إلى الفندق المطلوب وأخذ الدكتور فالح ووالدته غرفة، واستقلّت ياسمين ووالدتها غرفة أخرى، اتفقوا على الالتقاء بعد ساعة في الصالة. انقضت الساعة، اجتمعوا في الصالة.. دعاهم الدكتور فالح إلى الغداء في مطعم الفندق.. تناولوا أشهى الأطعمة. كانت الأمهات مجتمعات، سعيدات بهذه الزيارة. بعد الغداء.. طلب منهم الدكتور فالح الاستعداد لزيارة بعض الأماكن، اعتذرت الوالدتان لشعورهما بالتّعب من السّفر.. استأذنهما في الخروج مع خطيبته لأحد المتنزّهات وتناول طعام العشاء، وافقتا على ذلك بعد أن أوصياهما بالحِرص على نفسيهما وعدم التأخر، وبأنّه عليهما أنْ يستيقظا مبكّرين في اليوم التالي لإنجاز مهامهم.

خرجا بالسيارة، صعدا إلى جبل قاسيون لينظرا الشام من علوّ شاهق، مدينة الماضي والحاضر.. التاريخ والحضارة، مدينة مياه الفيجة والياسمين، بدأت السيّارة بالصعود في طريق ذلك الجبل الذي يقف شامخاً ليروي التاريخ العَبِق لهذه المدينة، بدأ صالح يشرح لها عن الشام وتاريخها العريق، خطر في بالها عمّان وشوارعها التي توحي بالمتعة والخوف منْ شدّة انحداراتها، انعطفت السيارة عن طريق الشام _ بيروت وبدأتْ الطريق بانعطافات وارتفاعات فكانت كأفعى تتطاول أمامهما، بدأت الشام تظهر أمامهما، ازدادت المناظر الجماليّة أمام أعينهما، أبدت إعجابها الشديد بما ترى، أيقنت أنّه أحسن الاختيار في القدوم لهذا المكان الشاهق والجميل، زال استغرباها حين روى لها في الطريق بأنّ قاسيون مكان لالتقاء المُحبّين والعشاق، وأنّ الكثير من الأزواج الجدد والعرسان يصعدون إلى ذلك الجبل للاحتفال بأجمل وأسعد أوقاتهم، حين اكتمل الصعود وبدت مدينة الياسمين تتجلى أعينهم، بدأ كلاهما يربط ما بين عمان والشام، استذكرا عمّان بجبالها السبعة، أشارت إلى تشابه تلك الإطلالة الرائعة لجبل القلعة وبيوت عمان، مع إطلالة قاسيون ووقوفه كحارس أمين التي بدت أسفل منه وكأنّها أدراج تتعالى ارتفاعاً لتصل إلى قمة الجبل، منظر ارتفاع المآذن زادها بهاءً وجمالا، شوارع الشام وحركة سياراتها مع بيوتها وأشجارها، جعلها كفاتنة يتفنن الشعراء فيها حبّاً وغزلا. تساءلت ياسمين حين رأت ذلك الارتفاع الشاهق والذي حسبته يُطاول السماء، هل أنّ الغيوم تعلوا هذه القمّة أم أنّها تتواضع أمام شموخه وارتفاعه؟! بعد ذلك طلب د. فالح من ياسمين أن يذهبا إلى فندق لتناول طعام العشاء، حاولت أن تبقى تستمتع بتلك المناظر البهيّة لفترة أطول، خلال ذهابهما إلى السيارة، كانت تمشي خطوة وتتراجع أخرى، كان لابدّ من الفراق وعودة النزول من العُلُوّ إلى أحضان الشام. هناك قام بحجز غرفة، احتجّت ياسمين، لكنّه أقنعها بأن الوقت مبكّرٌ لتناول العشاء، وبأنّ عليهما الاستراحة لساعة من الزمن.

وافقت ياسمين.. دخلا الغرفة.. تبادلا الأحلام.. ولأنهما قاما بكتب الكتاب.. ظنّا بأنّه يحقّ لهما فعل أيّ شيء، أُسوةً بكلّ الأزواج، جرّهما الهيام والغرام إلى استباق موعد الزفاف، فأعطته ما تحفظُ كلّ فتاة إلى يوم دخلتها، فأصبحت في عداد النساء.!

ندمت ياسمين ندماً شديداً، لكنّه كان يهدّئها بقوله لها: أنتِ زوجتي بشرع الله وسنّة رسوله، نحن يا عزيزتي لم نقترف إثماً!

ياسمين- لكن هذا ليس بالوقت المناسب، ولا يحقّ لنا أن نقوم بما قمنا به الآن!

فالح - هدّئي من روعك، أعدك بأن زواجنا سيتمّ بعد عودتنا بأسبوع واحد فقط...

بكت ياسمين بكاءً مرًّا، اختلطت دموع السّعادة بدموع النّدم، متناقضات غريبة تُحسُّ بها، الحزن والفرح.. البكاء والابتسام، كُحلتها.. أجراها دمعها على خدّيها الورديين، خطّت خيوطها السّوداء في أرض بيضاء، صفاء ونقاء ياسمين الشام، انعكس عليها، رغم بكائها إلا أنّ وجهها رسم لوحة زادت من جمالها، لاطفها وداعبها، حتى أراح أعصابها، قاما بالاستحمام والنزول إلى المطعم.. تناولا العشاء، بعدما بدأت نفسيّتها بالتحسُّن، تناولت طعامها وهي تسترق نظرات خَجِلَة، تصاحبها بسمات لطيفة، تدلُّ على انبساطها ورضاها، تُحاول أن تعيش لحظات رومنسيّة في واقعها وخيالها، عادا إلى الفندق الآخر، دخلت ياسمين تنطُّ وتلفُّ ملوحةً بحقيبة يدها في الهواء وتقول: ما أجملك يا شام..!

اشترى لها كسوة فاخرة، كما اشترى بعض الهدايا لوالدته وحماته، قام وياسمين باختيار بدلة سوداء اللون له، استمرَّ غيابهما هناك ثلاثة أيام، كانا خلالها يختلقان الأعذار الواهية، فيذهبان إلى ذلك الفندق ليتمتعا ببعض الوقت، بعيدَين عن والديتهما، فكانا يغادران الفندق عصراً ويعودا إليه في وقت متأخر من الليل، بعد أنْ يُفرغا منْ عواطفهما ما يُضفي لرحلتهما سعادةٌ بلا حدود.

عادوا من دمشق فرحين مسرورين، لم تكن الدنيا تسعهم، خاصة العروسين، شهر عسلهما المبكّر، لن يُمحى من ذاكرتهما، لم يكُنْ هناك ما يُعكّر صفو رحلتهما، سَيَخلُدُ هذا اليوم ويسجّل في تاريخ سعادتهم، انطلقا بسيارتهما على مهل، لم يحاول الإسراع فسيارته كانت ممتلئة بالملابس والهدايا، دخلا الأردن، كانا ينتظران الوصول بفارغ الصبر، يستحثّان الوقت للإسراع، ليمضي ما تبقّى من أيامٍ قليلة على زواجهما الرّسميّ. جلست ياسمين في الكرسي الخلفي بجوار والدتها المنهكة من السفر، أمّا والدة الدكتور فالح فبعد إنهائهم لإجراءات الدخول لمدينة الرمثا، غطّت بسبات عميق، لم تَعُدْ تحتمل عناء السفر أكثر من ذلك، حاولت والدة ياسمين أن تبقى يقظة متنبّهة، إلاّ أنّ سلطان النوم الذي غالبَها، غلبها وتغلّب عليها، لتنضم إلى والدة الدكتور فالح وتشاركها نومها العميق. في الأثناء لم تترك ياسمين والدكتور فالح لحظة إلاّ وحاولا استغلالها إمّا بالكلام أو بهمس من عينيهما، تبادلا الابتسام والغمز، تمُدُّ يدها من خلفه، تُداعب رقبته وأذنه بلطف، يُسرُّ بتلك الحركات، يحاول أن يفاجئها بمحاولة عضّ يدها، فتسحب يدها وكأنّها طفلة تُحاول استفزازه، ليداعبها ويلاعبها. قبل وصولهما عمان بقليل، كان التعب قد أنهك الدكتور فالح، ساد الصمت والسكوت بينهما، لكنّ ياسمين لم تُشِحْ عينيها عن مرآة السيارة لتُمتّع ناظريها بحبيبها. نظر إليها حبيبها في المرآة لتبادره بغمزة مزدوجة من عينها وشفتيها، ردّ إليها غمزتيها وأومأ لها بأن تكرّرها، لكنّها رفعت حاجبيها معلنة الرّفض الذي يرافقه الغنج والدلال، تسمّر بصره في المرآة ينتظر ردّها، انحرفت سيارته عن الطريق واصطدمت بشجرة كبيرة. كانت إصابة د. فالح برأسه وصدره بليغة.. توفّيَ من فوره، فقد ضغط مقود السيارة على صدره فتكسّرت أضلاعه، غصنٌ كبيرٌ من تلك الشجرة، اخترق الزجاج من جهته ليُساعد في انهاء حياته. أما ياسمين ووالدتها وعمّتها، فلم يصبهم أيّ مكروه سوى بعض الرضوض الخفيفة،

حضرت سيارة الإسعاف ونقلوهم إلى المستشفى، ولم يعلم أي أحد منهم بأن د. فالح كان قد توفّي.
تمّ إجراء الفحوصات الطبية لهم، وقاموا بعمل صور الأشعة، فتبين بأنّ الجميع بخير، ولا يعانون من أيّة مشاكل صحيّة، بدأوا بالسؤال عن د. فالح الذي افتقدوه.. لكنّ الطبيب، طلب منهم العودة إلى البيت، وإرسال والده لمتابعة علاجه، حضر أبو فالح وطلب مشاهدة ابنه، لكنّ الخبر كان صادماً له بوفاة ولده، صرخ بأعلى صوته ولطم بيديه على وجهه، صعقه الخبر ولم يحتمله، بدأ يصيح وينوح، حاول الأطباء التخفيف عنه، وقاموا بإعطائه إبرة مهدئة.
عندما علمت ياسمين بالخبر، أصابتها صدمة عصبية حادّة، نُقِلَت على إثْرها إلى المستشفى، فكتب لها الطبيب دخولاً ريثما تهدأ أعصابها، الذهول والوجوم سيطر عليها، كانت كثيرة الشرود، لمْ تخبر أحداً بما جرى بينها وبين خطيبها في الشام، حاولت التعتيم وإخفاء الموضوع حتّى عن والدتها، لكن.. هل ستبقى الحقيقة مخفيّة؟ وإلى متى؟ وما هو الحل لهذه المشكلة يا ترى؟ هل لديها الجرأة لإعلان ما حصل؟
انقضى أسبوع وياسمين ترقد في المستشفى، يتقلّب مزاجها فتجدها هادئة أحياناً، وعصبيّة المزاج أحياناً أخرى.
تمّ إخراجها من المستشفى بعد أنْ أكّد الأطبّاء أنّها أصبحت بخير وعادت لطبيعتها وهدوئها، كان فكرها منحصراً بما جَنَتْ به على نفسها، تحاول أمها التخفيف عنها، اعتقاداً منها أنّ ابنتها مصدومة من موت خطيبها، لكنّ ياسمينُ ما تلبث أن تعود لشرودها وسرحانها مرة أخرى، سألَتْها والدتُها مرارا: "كيف لي أن أساعدكِ يا بنيّتي؟ لقد قدّر الله لك هذا الأمر، فاصبري واحتسبي عند الله.. عودي لحياتك وعيشي الواقع يا ابنتي".. سيأتيك من يحبّك وتحبينه.. ستتزوجين وتنجبي الأطفال.. ستكون لك حياة هانئة وسعيدة، لكنّها كانت تنظر إليها باستغراب ولا تجيب.

حاولت رشيدة أن تتواصل معها كثيراً، لم تستطع إخراجها مما هي فيه، أخرجتها من البيت عدّة مرات للتنزّه وتغيير الأجواء، لكنّها لم تستطع التغيير من واقعها شيئاً.
ذات يوم وهما تجلسان في أحد المطاعم، أصابها دوار مفاجئ وحاولت التقيُّؤ، لم تستطع السير، طلب العاملون في المطعم أن يأخذوها إلى المستشفى، لكنّها رفضت وجلست حتى ارتاحت ثم عادتا إلى البيت.
بدأت تساورها الشكوك بأنّها حامل، قررت أن تقوم بفحص الإخصاب، ثبت وجود الحمل.
إذن بدأت رحلتها مع العذاب والشّقاء، ربما تكون هذه ذروة مشكلاتها، وربما تكون هي الخطوة الأولى في درب سعادتها، لم تفرح بحملها كباقي النساء، ذهب جلّ تفكيرها في سؤال سيسأله الجميع.. من هو والد هذا الجنين..؟!، صارحت والدتها بما جرى، أصيبت الأمّ بصدمةٍ شديدة، شهقت.. ولكنّها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، لم تحتمل وقع الخبر عليها، فتوفيت على الفور بجلطة دماغية كما أفاد الطب الشرعي، أصبح شهر أيلول عام سعادة لرشيدة بحملها الثاني، وعام تعاسة وشقاء لياسمين التي أصبحت لطيمة بموت والديها، ناهيك عنْ الهمّ الذي سكن أحشاءها، كلّ النّساء تَسْعَدُ بحَمْلِها، إلّا ياسمين، فقد كان وبالاً عليها، هُما حَمْلان توافقا في شهر واحد.. أحدهما أضفى سعادة، وهو حَمْلُ رشيدة، والآخر أضفى تعاسة، وهو حَمْلُ ياسمين.!
استأذنني محدّثي (أبو مشعل)، الذي لديه من الأخبار ومعرفة الشخوص ما يدلُّ على علاقاته الواسعة والحميميّة مع الكثير من النازحين وأهالي الحيّ استأذنني للمغادرة وأداء صلاة العصر، على أن نعاود الالتقاء في اليوم التالي لإكمال الحديث وبقيت أنا أجلس واهماً مفكراً ومنتظراً لأبدأ بعدّ الدقائق واللحظات لمعاودة اللقاء وسماع باقي الأحداث.

****

تكـرّر أمر الغثيان مع ياسمين عدة مرات، لذا قررت من فورها أن تذهب إلى جدّ الطفل وإعلامه بالأمر:
ياسمين– عمّي...!
هو- يا روح عمك.. هل تحتاجين شيئاً يا بنتي ؟
ياسمين - والله يا عمي.. الحمد لله فالمرحوم لم يقصّر معنا.. ولكن هناك أمر بالغ الأهمية، ويجب أن تعلم به
هو- تفضلي يا ابنتي، كلّي آذان صاغية
هي- أنا خجلة جداً من الحديث، لكنْ.. لا بدّ من إبلاغك بالحقيقة
هو- تكلّمي.. ماذا هناك؟
هي- خلال زيارتنا لدمشق، حينما كنّا نشتري الكسوة، اختلينا أنا والدكتور فالح في أحد الفنادق، وتمّ اللقاء بيننا، فقدتُ عذريّتي، وأصبحت زوجته وفي عداد النساء!.
هو- ماذا تقولين؟ هل أنتِ مجنونة!.
هي- على رسلك يا عمي.. استمع لباقي الكلام!.
هو- أكملي بسرعة، هل من مصيبة أخرى؟.
هي- نعم.. هناك مصيبة أعظم.. أنا أحمل من ولدِك.
نهض بسرعة والشرر يتطاير من عينيه، وصرخ بها: هذا الكلام كلّه كذب.. أنت كاذبة.
هي- أقسم يا عمّي بأنها الحقيقة.
هو- ولمَ لمْ تخبرينا بذلك منذ وفاة ولدي؟
هي- لم أتوقع بأني سأحمل، فقلت أستر على نفسي.
هو- وأيُّ سترة هذه؟.
هي- على كلٍّ، المرحوم كان زوجي شرعاً.

هو- نعم ! ولكن عاداتنا وتقاليدنا لا تسمح لكما باللقاء قبل حفل الزواج وذهابكِ لبيته كزوجة.
هي- هذا ما جرى، ووددت إعلامكم بأنّ جنيناً لكم ينمو في أحشائي الآن.
هو- اسمعي جيداً.. نحن لن نعترف بهذا الجنين إطلاقاً، من المؤكد أنّه ليس ابن المرحوم، أنت قمتِ باقتراف خطيئة وتريدين إلصاق خطيئتك بمن لا يملك أن يُقدّم لك شهادة بذلك، فهو قد مات أيّتها الفاجرة!
هي- حاشَا لله يا عمي...
هو- أكيد أنّ هذا الجنين هو غير شرعي، أنت تريدين إلصاقه بي وبعائلتي، حتى يحظى بإرث ماليّ كبير ونسب مشرّف.
هي- (بصراخ وبكاء مرير) أقسم أنّه ابن د. فالح، أقسم أنّه ابن شرعي...
هو- (صارخا بها).. هيا قومي واخرجي، اذهبي إلى والد ابنك ولا تلصقيه بنا، أنت تعرفين من هو والده، هي درب الآلام.. وأنت من اختارها، اسلكيها وحيدة!.
انهارت ياسمين، جثت على ركبتيها تُقبلُّ قدميه نائحة باكية.. بدأت رؤيتها ضبابيّة لما حولها.. شرعت تصرخ وتقول: "عمي أرجوك.. هذا حفيدك أقسم لك أنّه ولدكم، أقسم أنني لم أرتكب أيّ خطيئة "...
تجاهلها وأمرها بالخروج.. نعتها بصفات سيئة.. واتهمها بالزنا.. ثُمّ شتمها، وقام بطردها من البيت.
نهضت واقفة .. توقفت عن البكاء لهول مصيبتها.. احمرَّت عيناها من شدة الغضب وقالت له: " سيأتي يوم ما تعلم فيه بأنني لست زانية، وستندم على كلّ كلمة سيّئة نعتَّني بها " ..وغادرت مسرعة لا تدري أين تتّجه أو لمن تأوي.!.
في طريق عودتها إلى البيت، كان مختار الحيّ الحج محمود يجلس على كرسيّ صغير من القشّ أمام مضافته، رأى حزنها الشديد واحمرار عينيها من أثر البكاء، ناداها وقال لها: ما بكِ حزينة يا ابنتي؟ الله رحمان رحيم وهو موجود!.

ياسمين- لا شيء يا عمي.. هي فقط المشاكل وهموم الدنيا.
المختار- إذن لك البشارة يا بنتي.
ياسمين- (بلهفة)، وما هي يا عمي؟ يبدو أنّ السّعادة غادرتني بلا رجعة، حياة البؤس والشّقاء بدأت ترافقني يا عم.. بِتُّ أحتاج لحظة فرح وإن صغُرَتْ..!.
المختار- اليوم جاءتك الموافقة من السفارة، للالتحاق بعملك الجديد في الإمارات العربية المتحدة وبأسرع وقت ممكن.. كما تقول برقيّة السّفارة، وتحديدا سيكون عملك بالشارقة.
ياسمين- يا فرج الله.. ما أكرمك يا الله، يا جبّار!.
أخذت برقيّة السّفارة.. قرأتها.. من فورها ذهبت إلى الدّلال أبو ياسر.. طلبت منه أن يقوم بإعلان بيتها ودكان والدها للبيع بداعي السفر، قال لها أبو ياسر إنّه على استعداد لشراء البيت والدكان منها وفوراً، فهو بحاجة إلى موقع كهذا حتّى ينقل سكنه ومكتبه، فاوضها على السعر.. انتهازيٌّ جاءته فرصته تحبو بين قدميه، لم تتشدد كثيراً.. وافقت وَباعَتْ له أملاكها بثمن بخس لا يصل إلى نصف ثمنها، لكنّها طلبت منه أن تمكث بالدار لحين سفرها، أمّا الدكان، فيمكنه تسلُّمها فوراً.. وما هي إلا أيّام قليله، كانت خلالها أمور سفرها قد تيسرت.. ذهبت لوداع صديقتها المقربة رشيدة.. أعلمتها بحقيقة ما جرى، وعن حملها، وإنكار والد الدكتور فالح للجنين ونسبه، صُدِمَتْ منْ هول ما سمعت، عَقَدتْ المصيبة لسانها، صمتت وهي تنظر إليها بشفقة واستغراب. قررت الابتعاد عن البلد، لحين ولادتها أو يقضيَ الله أمراً كان مفعولا.. سألتها رشيدة عن الحل في مشكلتها هذه؟ لم تستطع تقديم إجابة، فقط أعلمتها أنّه لا بدّ لها من السفر والابتعاد عن كلّ من يعرفها، حاولت تهدئتها، طلبت منها أن تصبر على هذه المحنة وقالت لها: لا تَنْسَيْ يا صديقتي أنّ الصبر مفتاح الفرج وربما يكون هناك المِنْحَة بهذه المِحْنَة ويكون القادم أجمل.

لم تكن ترغب بهذا السفر، ما يُجبرها على هذا المُرُّ، هو الأمرُّ منه، مشكلتها الماديّة كانت محلولة أصلاً، فالدكتور فالح قدّم لها الكثير من المال، لكنّها تودّ الاختفاء بحملها بعيداً، إلى أن تأتي اللحظة التي تستطيع فيها إثبات نسب حمْلها ،وتُثبتُ طُهْرها ونقاء شرفها.
ودّعت رشيدة، أخذت سيارة أجرة لتوصلها إلى المطار، جلست في المقعد الخلفيّ تتلفّتُ يميناً ويساراً، كانت تودّع عمّان على أمل اللقاء والعودة مرة أخرى، تضغط في قدميها على أرضيّة السيارة، وكأنّها تستحثّها على المسير بسرعة أكبر.. وأكبر، شُعورُها بأنّ الظّلم الذي وقع عليها كان كبيراً ومُجحفاً، تودّ الإسراع للهروب من أرض ظلمها فيها أهلُها، وصلت المطار، وبعد ساعة من الزمن صعدت إلى الطائرة، كانت هي المرة الأولى التي تصعد فيها طائرة، قلبها خفقَ بشدّة حين بدأت الطائرة بالإقلاع، وحينما بدأت بالارتفاع أحسّت بأن قلبها يسقط من بين ضلوعها، تمايلت الطائرة يميناً ويساراً، ثم استقرّت في صعودها مغيّرة اتجاهها من الغرب إلى الشرق.
بدأت تعود لطمأنينتها وهدوئها، مضت ساعتان في الجو، لمْ تأكل ولمْ تشرب خلالهما أيّ شيء، كان ما يشغل بالها هو فقط، اللّقاء الذي كان مع عمّها وما سمعته منه، تارةً تبكي بصمت وتارةً تسرح ناظرة خارج النافذة، لا ترى على الأرض سوى الصحاري وأحياناً مياهَ البحار.
أخيرًا.. بدأت الطائرة بالهبوط قليلًا قليلًا لتقترب من أرض الشارقة، منظرها من الأعلى واحة خضراء، اعتقدت بأنّها لن ترى سوى الرمال، ولكن حقيقة الأمر كانت عكس ذلك تمامًا ، فجمال الشارقة من الأعلى سلبها لبّها، ارتاحت نفسيتها، وهدأت أعصابها، بعدها بدأت تشعر بالانتعاش.
هبطت الطائرة وبدأ الركاب بالنزول، وصلت ياسمين إلى الباب، وهمّت بالخروج، نكصت إلى الخلف وكأنّها تلقت صفعة على وجهها، فاجأتها

حرارة الجو الشديدة، مما حدا بها إلى الرجوع إلى الدّاخل، توقفت للحظات، ثم تابعت خروجها والنزول من الطائرة.
انتهت جميع اجراءات دخول البلاد، خرجت من مبنى المطار، واستقلّت سيارة أجرة لتأخذها إلى عنوان السكن الذي كانت تكتبه على ورقة، هو سكن محدّد من قبل الوزارة للموظفين القادمين من خارج البلاد، وهو سكن للإناث فقط.
وصلت غرفتها، وجدت أنّ الأجواء داخله تختلف كثيرًا عن الخارج، كانت ياسمين مرهقة ومتعبة جدًّا، ألقت بحقيبتها على الأرض، استلقت على السرير وغرقت في دوّامة التّفكير.
لم يكن مكان سكنها يبتعد كثيراً عن مكان عملها سوى عشرات الأمتار، أنهت دوامها في اليوم الأول، عادت إلى سكنها، كان ينقصها أن تشتري بعض الأغراض التي تحتاجها من أجل عيشها، ذهبت إلى أحد المولات القريبة، بدأت تتسوق على مهل، تدقق بكل شيء، تركز على تواريخ الإنتاج والانتهاء ومكوّنات المادّة الدّاخلة في الصناعة، وبلد المنشأ، أحبّت أن يكون لديها فكرة عن طبيعة البلاد وطبيعة الرقابة فيها، وبينما هي تدقّق في إحدى المعلبات، وإذا بصوت خافت يأتي عن يمينها يقول: ياسمين؟.
نظرت باستغراب وتعجب! صعقتها المفاجأة، لم تتوقع أن تلتقي بمن يعرفها، ولكنّ العالم أصبح ضيّقٌ كثيراً، هجمت على صاحبة الصوت واحتضنتها بقوّة، إنّها زميلة الدراسة.. إنّها سجى.. تلك الزميلة التي لم تلتقيها منذ أيام الثانوية العامة، احتضنتها بشدة كأختٍ لها لم تلتقيها منذ زمن بعيد، بدأت تقبلها والدّموع تنساب على وجنتيها فرحاً، انهالت الأسئلة من الطّرفين دون انتظار الإجابة، سجى كانت بعمر ياسمين، لكنّها كانت تبدو وكأنها أصغر من ياسمين بسنوات، هي جميلة، هادئة، ناعمة، الهدوء سمة من سماتها، مقلّة في الكلام إلاّ حينما التقت بياسمين، لا تخرج من بيتها إلاّ بتبرّج خفيف، حتّى لو اقتصرت تبرّجها هذا على الكُحْلِ فقط،

تعيش مع زوجها بسعادة بالغة، وبينما هما تتبادلان التّحايا والسلامات وتستذكران الماضي، خاطبتها سجى قائلة: ياسمين أنت.. حبيبتي وصديقتي...
ياسمين- وأنت روحي وحياتي...
سجى- ما الذي أتى بك إلى الشارقة؟
ياسمين- تعاقدت للعمل في مدرسة قريبة من هنا.. وأنت؟
سجى- بعد التوجيهي تزوجت من شاب محترم، يعمل هنا كمهندس اسمه سيف.
ياسمين- بالتوفيق لكما! هل هو معك هنا؟
سجى- نعم.. إنه هناك وأشارت اليه يقف عند القصّاب لشراء اللحوم والأسماك.
ياسمين- ما شاء الله.. بارك الله لك به وبارك له بك.. يبدو شاباً وسيماً.
وضحكتا معاً.
وبينما هما تتبادلان أطراف الحديث والذكريات، وإذا بسيف يحضر ومعه عربة ممتلئة بالمشتريات، ألقى التحية، طأطأ رأسه خجلاً من صديقة زوجته، قامت سجى بتعريفهما لبعضهما، مدّ يده وسلّم عليها، ولكنّها عادت وسحبتها بسرعة، لقد أحست بشيء يجذبها نحوه، رعشة أحسّتها تسري في عروقها، أراد سيف المغادرة، لكنّ سجى طلبت منه البقاء حتى تنتهي ياسمين من شراء حاجياتها، ومن ثم يقومون باصطحابها إلى مسكنها.
عادت ياسمين إلى سكنها وما زالت تلك الرعشة تسري في عروقها، بدأت تفكر وتسأل نفسها ما الذي حدث معها؟ حاولت أن تزيل فكرة أنّها استلطفت سيف من رأسها.
فتحت التّلفاز على فيلم بوليسيّ، تحاول تغيير إحساسها وتفكيرها، لكنّ سيف احتلّ مقعده في عقلها وقلبها وتربّع فيهما، كانت تلحظ عينيه وهما

تحدّقان فيها وترسلان نظرات العطف والحنان لتخترق عينيها وتستقرّ في قلبها وعقلها.
كانت سجى تحاول كثيرًا أن تدعو ياسمين لمرافقتها وزوجها خلال خروجهم للتنزُّه أو لتناول عشاء في مطعمٍ ما، حتّى أنّها كانت كثيراً ما تتّصل بأهلها في عمّان وتحكي لهم عن التقائها بياسمين وما كان يدور بينهما من أحاديث وأحداث. سيف يحاول تجاهل ياسمين التي تبادله نفس التصرُّف، ذات يوم.. بينما هم يتناولون طعام العشاء في أحد المطاعم الفاخرة، استأذنت سجى كي تذهب إلى الحمّام، في غيابها نظر سيف إلى ياسمين، تبسَّم لها وقال:" اعذريني إن قلت لك بأنّك كلّما تقدّم حملك، ازددت جمالاً وإشراقًا وبهاءً".
ابتسمت ياسمين وطأطأت رأسها خجلًا، فقال لها: ياسمين.. أرجوكِ ارفعي رأسك وانظري لي، رفعت رأسها على استحياء فبادرها بقوله: إني أرى جمالاً يقابلني لم أعهده من قبل، جمالك يأسرني، فمنذ التقيتكِ وأنا دائم التفكير بك.. ردَّت عليه بسرعة ودون تركيز: وأنا كذلك، ولكن..!
هو- لكن ماذا؟.. قولي...
هي- أنت زوج صديقتي الوحيدة هنا، أرجوك أن تحافظ على صداقتي لها!
هو- وما الضَيرُ إن أحببتك؟ فقلب الرجل يتّسع لأكثر من امرأة!
هي- هذا الحب محظورٌ و مجهول النتائج، وأنا الآن أهتمّ بجنيني وبحملي، أرجوك.
عادت سجى من الحمّام، تناولوا عشاءهم وسيف وياسمين يختلسان النظرات لبعضهما ثمّ انصرفوا.
أصبحت اللقاءات تتوالى، والزيارات تكثُر، بدأت مكالماتهم الهاتفية تتزايد وتطول، ولقاءات باتت تتمّ دون علم سجى، أصبح غياب سيف يكثر ولقاؤه بزوجته يقلّ، يعتذر بالعمل وظروفه الصعبة، ولكن.. إلى متى سيطول كذبه هذا؟ وإلى أين سيوصله؟ وهل تُغَطّى الشمس بغربال؟ ستُعلم الحقيقة إنْ عاجلاً أو آجلاً!

بـدأت ياسـمين تشـعر بتعـب وآلام الحمـل، عانـت كثيـراً.. اقتـرب موعـد ولادتهـا، وبـدأت تشـعر بأنّهـا تعيش بشتاتٍ جديد، شتات اختارتـه بنفسـها، ولكنّه يبقى في النهاية شتات.

حان موعد ولادتها، رافقتها سجى إلى المستشفى، كانت لها الأخت والأمّ، قُبيْل ساعات الفجر الأولى من السادس منْ حزيران، أنجبت مولودًا ذكراً أسمتهُ فالح، هذا التّاريخ الذي تصادف مع يوم احتلال باقي فلسطين، اتشّح هذا اليوم بالسّواد والبياض في حياة ياسمين، وثّقت اسمه بشهادة ولادة بموجب عقد زواجها من الدكتور فالح، سجى تقف إلى جانبها وتعينها، كثيراً ما تجلس تعتني بالمولود وتلاعبه، تحاول إشباع غريزتها ورغبتها في الأمومة عن طريق فالح، الذي أحسّته ابناً لها!

لم يبدُ عليها حتى هذا الوقت أيّة علامات أو دلائل حمل، تعلّقَت بفالح كثيراً، حتّى باتت تقضي معه الساعات الطِوال، وبعدما انتهت إجازة ياسمين، طلبت منها سجى أن تُبقي فالح عندها لحين عودتها من العمل.

كل يوم.. يزداد تعلّق سجى بالطفل، سيف كان يسعد بهذا الأمر، فهو كان يُحضِر ياسمين وطفلها إلى بيته، ويعود ليوصلها إلى عملها، كانت عبارات الحب والشوق المتبادلة بينهما تزيد من تعلّقهما ببعضهما أكثر فأكثر، انتبهت إلى أنها تُخطيء بهذه العلاقة، فقررت ياسمينُ أن تخفف من هذه اللقاءات، تشعر بأنها تخون صديقتها التي كانت أختًا وأمًا لها ولولدها، بينما هي تتبادل عبارات الحب والغرام مع أقرب الناس لها! مفارقة عجيبة، لا إسم لها غير الخيانة!

بدأت ياسمين تتعلم قيادة السيارة، حصلت على "الرّخصة"، بعدها قامت بشراء سيارة متواضعة حتّى تتهرّب من توصيل سيف لها وتخفف منْ لقاءاتها به.

صراع في داخل ياسمين كان يقضّ مضاجعها، هي تريد الإخلاص والوفاء لصديقتها من جهة، ومن جهة اخرى كان حبّها لسيف يقوى ويتجذّر، ذات يوم.. جلست ترقُبُ طفلها، رنّ هاتفها، كان المتصل هو

سيف، أخبرها بأنه حدث معهم حادث سير، وأن سجى ترقد في المستشفى بانتظار عملية جراحية بسبب كسور أصيبت بها جرّاء الحادث.
تحركت ياسمين من فورها إلى المستشفى، رافقت صديقتها لعدّة أيّام، كان ذلك بعد إنتهاء دوامها، بعد أسبوعين خرجت سجى من المستشفى مع عكازين تتأبّطهما ويرافقانها.
بدأت ياسمين تحاول التخفيف من لقاءاتها بسيف، أصبحت سجى الآن تحتاجه بشكل كبير، هنا.. جاء وقت الوفاء والإخلاص، صارحت سيف بكلّ هذا، طلبت منه أنْ يكون صديقاً وليس حبيباً، حاول سيف التملّص، عرض عليها الزواج، متحججاً بتقريبها من صديقتها سجى، من أجل الوقوف إلى جانبها في محنتها، ولكنّ ياسمين أوضحت له بأنّ إخلاصها هو ما سيُعينُ سجى في محنتها، هذا الزواج سيكون الصاعقة التي ستضرب سجى وتقتلها، سيف لم يقتنع بما قالته وحاول تأجيج مشاعرها مراراً، يضغط عليها كثيراً، كانت ترفض وبشدة جميع عروضه ولقاءاته، أخيراً.. قرّرت أن تبتعد وتطلب نقلاً إلى منطقة بعيدة عن سيف وسجى، أرادت هروبا إلى الداخل، طلبت العمل في القرى.. وافقت لها الوزارة وانتقلت.
حاولت سجى أن تُثنيها عن قرارها بالابتعاد، ضغطت عليها وتوسّلت لها بأن لا تبتعد عنها وتتركها وحيدة، خاصة بعد أن أصابها ما أصابها، وحاجتها لها والوقوف إلى جانبها في محنتها، بكت ياسمين على صديقتها وتوسّلاتها، حاولت أن توصل لها المعلومة، ولكن بلا نتيجة، أخيراً.. قررت ياسمين أن تضع صديقتها بحقيقة ما يجري، استحلفتها وأخذت عليها عهداً ووعداً صادقاً بأن لا يكون لها أيّة ردود أفعال، مقابل أن تُريحها وتعلمها بحقيقة ما يجري. فعلاً أقسمت سجى ووعدت، قامت ياسمين بسرد كلّ ما جرى بينهما. وجمَتْ سجى وسرحت بخيالها قليلاً، ثمّ ارتسمت على شفتيها ابتسامة تدلُّ على حَيْرَتِها واندهاشها مما سمعت.

نعتت ياسمين بالصديقة الوفيّة، وستلتزم هي بما قطعته على نفسها، وعلى أنْ تتواصلا ولو عن طريق الهاتف.
وصل سيف لقناعة بأنّه يجب عليه أن يعود لبيته وحياته، وإلى زوجته.. خاصّة بعد أن تبين له بأنّ سجى تحمل في أحشائها جنيناً، أنجبت بنتاً جميلة، أعادت هذه البنت السّعادة لحياتها وحياة سيف، الذي عاد ليَرْقُدَ في عشّه بسلام مع سجى وابنته ضُحى.
الأيام تمرُّ ثقيلة وعصيبة على ياسمين. في المنطقة التي أصبحت تعمل فيها، لا تعرف هناك أيّ شخص، أحسّت بغربتها وبعدها عن وطنها وأهلها، كثيراً ما كانت تجلس وتسرح في الماضي وأيّام الدكتور فالح، تستذكره زوجاً وأباً ورفيقاً، حاولت أن تجد لها صديقات في المدرسة التي تعمل بها، تصطدم باختلاف العادات والتقاليد التي نشأت وتربت عليها، لم تستطع التّأقلم مع هذا الواقع الجديد، همٌّ آخر يُضاف إلى مخزونها الكبير من الهموم.
كان الهمّ الأكبر عند ياسمين هو إثبات نسب ولدها، تعبت في حياتها كثيراً في هذه القرية النائية والتي لم يتجاوز عدد سكانها سوى المئات فقط، أصبحت مشاكلها تزداد كل يوم، فالبيت عبارة عن غرفة طينيّة متواضعة مع مطبخ صغير وحمام لا يكاد يتّسع لشخص واحد، بسقف صُنعَ من أعواد القصب، أما الحوش فكان عبارة عن ساحة رمليّة محاطة بسور طينيّ لا يبتعد كثيراً عن الغرفة، كثيراً ما كانت تجد في هذه الساحة العقارب وأحياناً الأفاعي مما قضّ مضجعها وقلّل من نومها خوفاً وقلقاً على نفسها وولدها، تصحو باللّيل.. تصطحبُ معها المصباح لتتفقّد الحوش من العقارب والأفاعي، وفي ساعات النهار لم يكن يهدأ لها بالاً من كثرة حركة ولدها وتكرار محاولاته للخروج واللعب، كان يفتقد إلى الصحبة ولعب الأطفال الآخرين، قررت الاستقالة، وقدّمت طلباً للعمل في دبي، التي بدأت تُسابق الزمن بتقدّمها وتطوّرها، تمّت الموافقة والانتقال إلى هناك.

دبي مسافة من السفر ومساحة من أمل، لمن عانق الشّوك في جزر نائية، تعيش سعادة لم تجدها مع نسائم بلدها التي هجرتها، تركتها وحيدة إلّا من طفل يُناغي سواد الليل، فترتسم بسمة واهية على شفاهٍ كحّلها الحجر، لولا كلمات كان ينطقها فالح الصّغير، وبعض حروف يُخربشها على أوراق يُبعثرها في أرجاء الغرفة، حتّى أنّ ياسمين أصبحت تناديه بالدكتور فالح، كانت دائماً تُذكّره بأنّه بذكاء والده وحكمته، وأنه لا بدّ وأن يصبح يوماً ما طبيباً كوالده. سنوات ثقيلة وبطيئة مرّت عليها أثقلت كاهلها كثيراً، أحسّت بأنّ الحياة تقف مكانها بلا حراك، تستحثّها بالمسير ولكنْ بلا طائل، تُسابق الزمن صبراً لترى ولدها فالح وقد أصبح فتىً يذكّرها بعيني زوجها "الذي تشتاقه كثيراً فلا تجده" ليعينها على مشاقّ الحياة وصعابها، تحبس عواطفها وتلجمها شوقاً للدكتور فالح، تحبسُ دموع شوقها من افتقاده، صوره بدأتْ تجفُّ في مخيّلتها إلاّ من ذكريات جميلة لا تستطيع أن تمحوها لحنينها إليه، تخشى أنْ تبوح بمكنوناتها وعواطفها حتّى مع نفسها، تمنّت لو كانت حجراً لا إحساس فيه ولا عاطفة تُربكُه. تُحاول أنْ تواسي نفسها بالتحدّث مع ولدها، تروي له حكايات عن حياتها مع والده وكيف فارق الحياة.. كانت تحبّبهُ بجدّه لوالده، وتقول له بأنّ نسبه وعائلته تُشرّف كلّ من ينتمي إليها، وأنّها ستعود بصحبته يوماً ما إلى دياره وأهله، سيعود يوماً إلى أرض السوسنة السوداء، وأرض الزيتون والزعتر.. أرض آبائه وأجداده.

هذا ما رواه محدّثي أبو مشعل في جلسة طالت قليلاً، نظر إلي محدّثي بعيون زائغة ومتعبة وقال: أبو ساجد والد سجى كان يضعني بتفاصيل ما يجري هناك أوّلاً بأوّل ولكنّه لم يكن يحتفظ بمعلوماته ويخبرني بها دفعة واحدة يا ولدي!، فهمت من كلامه بأنّه علي أن أغادر ونلتقي مرّة أخرى لاستكمال الحديث، استأذنت وغادرت على أنْ نلتقي بأقرب وقت ممكن.. فأذِنَ لي.

****

حياة رشيدة وصالح تسير على خير ما يرام، السعادة عنوان لحياتهما، عودة الصغير كان كما الماء للبستان، كان رحيق الزهر في حياتهما، هو الحلم الجميل الذي سعيا إليه، زرع الجمال في قلبيهما، شمسٌ بزغت في سمائهما، أشرق نورها فأضاءت سواد ليلهما، قدّما له أفضل ما يمكنهما، جاء الحمل الثاني.. رزقها الله بولد جميل آخر، أسمياه عوّاد، زادت سعادتهما بعد أنْ مَنَّ الله عليهما بزهرة أخرى، تفتَّحت في بستانهما، ولكنّ الحياة بدأت تأخذ منحىً آخر في صعوبتها ومسؤولياتها، هناك الوظيفة وطفلان والبيت، المصاريف تزداد والمسؤوليات تتعاظم، بدأ الحِمْلُ يَثْقُلُ، لكنّ السعادة التي كانوا يعيشونها، خففت كثيراً من وطأة الحياة عليهما. جلس صالح يفكّر في طفليْه ومسؤولياتهما، قاده التفكير إلى الماضي، عاد به إلى أيّام طفولته الصّعبة، كان يوم ولادة أخته من أبيه محطة فارقة في حياته، هلّت ساعات فرح وانبساط، بعد عامٍ من ولادتها، أراد والده أن يصحبه معه إلى المدينة، أصرّ عليه أن تُرافقهما أخته الصغيرة، قاما بتصويرها عند رجل يضع كاميرته في السوق، أحبّ صالح تلك الصورة، كثيراً ما كان يلاعبها بصورتها، بات اليوم يفتقدهما معاً، يشتاق لهما، ولكنْهما ترافقتا وغادرتاه إلى غير رجعة. تم افتتاح حضانة في الحيّ، قامت رشيده بإرسال أطفالها إليها، قررا أن يتريثا بالإنجاب لبضع سنين.. تفاجأت رشيدة ذات يوم بأنها تحمل طفلاً جديداً، رغم عدم رغبتها في الإنجاب في هذا الوقت، إلا أنهما سعدا بهذا الحمل الجديد.. أنجبت رشيدة الذّكر الثالث أسموه عودة، زهرة أخرى تُضاف إلى حديقتهما الجميلة، يشبه إخوته إلى حدٍ كبير.. امتازوا جميعاً بأنهم أخذوا من صفات جمال أمهم، استمرت السعادة في حياتهم لا بَلْ ازدادت مع وجود الأبناء الثلاثة، أدخلوا الأولاد ليتعلموا في رياض الأطفال، وكانوا كلّما كبُر واحدٌ منهم،

أرسلوه إلى المدرسة، أمّا عودة فكان أقلّ ذكاء من إخوته، رغباته في الدراسة كانت ضعيفة، سرُّ غبائه كان مفضوحاً.
سمّوا أبناءهم بعايد وعواد وعودة، آملين بعودتهم إلى الدّيار في فلسطين يوماً ما، حتّى أنّ بعض الجيران والأصدقاء من الأردنيين تضامنوا معهم في تسمية بعض أبنائهم بأسماء بعض المدن والقرى الفلسطينيّة.
النّاس في مجتمعنا يتفاءلون بأسماء تدلّ على أحداث أو أماكن محبّبة إلى قلوبهم. فلسطين لم تفارقهم يوماً في حياتهم، كلّما تسامروا.. عادوا بحديثهم عن فلسطين وما جرى لها.
مضافة المختار الحج محمود عامرة برجالات الحيّ يومياً من أهالي المنطقة والنازحين، كما أنّ أمّ محمد " زوجة الحج محمود " لديها غرفة واسعة تستضيف بها بعض نساء الحي، يتسامر الجميع ، يتبادلون أطراف الحديث عن فلسطين وعن النكبة والنكسة، وما جرى للناس من شتات وهوان، كما أنّهم يديمون ذِكر الأشخاص وتفرّقهم في عدة أماكن ودول، آملين أن يتم ذِكر شخصٍ يعرفه أحدهم ليوصلوا المعلومة لأهله، فالشتات اتّسعت دائرته حتّى تفرّق الناس ولم يعُد الكثير منهم يعلمُ شيئاً عن أقربائهم وبعض أهليهم.
ذات فرح وسرور، كانوا يتحلّقون حول قالب من الكيك، أعدّته رشيدة خصّيصاً ليوم ميلاد عايد، سعدوا جداً، غنّوا له مجتمعين:

سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا عايد

سنة حلوة يا عايد.. سنة حلوة للجميع

قاموا بتقطيع قالب الكيك، أكلوا منه جميعاً، فرحوا وتبادلوا النُّكت، كانت الابتسامات والضحكات يرتفع صوتها في البيت، أحسَّ صالح بانقباض شديد في صدره، بدأ يشكو من الألم، طلبوا منه أن يأخذوه إلى المستشفى، لكنّه رفض ذلك، انقلب جوّهم كَدَراً، وساد الصمت، بعد قليل بدأ صالح يتعافى ويشعر بارتياح قليل، ذهب الأولاد للنوم، وبقيت رشيدة تجلس مع

صالح، تنظر إليه بقلق... كسرت حاجز الصمت وسألته: كيف أنت الآن يا صالح؟
صالح- الحمد لله بدأتُ أتحسّن.. ما يُنغّصُ عليَّ هو رؤيا سيّئة رأيتها بالأمس، لا أحبّذ ذكرها.. مِنَ السُّنّة أنْ لا نذكرُ الأحلام والرّؤى المُزعجة.
رشيدة- أنا أُفضّلُ أن تذهب إلى المستشفى
صالح- لا داعي.. بدأتُ أرتاح
رشيدة- ولكن..
صالح- بعد قليل سأكون على ما يرام
عاد الصمت يُطبقُ على المكان من جديد، قامت رشيدة بغلي إبريق من مشروب (الزهورات)، وقدّمتهُ لصالح لعلّه يرتاح قليلاً، شربوا، ثم ذهبت رشيدة إلى غرفتها، وقفت أمام خزانتها، كان هناك صندوقٌ صغيرٌ، فيه بعض من مقتنياتها الخاصّة، بدأت تقلّبها الواحدة تلو الأخرى.
في قعر الصندوق.. تلك الصورة التي اعتادت أن تُخرجها وتنظر إليها في فرحها وحزنها، أمسكتها، نظرت إليها مليّاً، بدأ شريط الذكريات يمرّ في مخيلتها بسرعة كبيرة، ابتسمت لصورتها، أخذتها وذهبت بها إلى صالح للمرة الأولى في حياتها، قالت له: مساء السعادة يا حبيبي...
صالح- مساء الهنا والرضا من الله
رشيدة- لدي مفاجأة لك
صالح- تفضلي، فاجئيني، وهل ينقصني!
رشيدة- لا تخف فالمفاجأة جميلة
صالح- حسناً.. هاتِها.. رُغْمَ أنني لا أرى ما هو أجمل منك..!
رشيدة- لدي صورة منذ طفولتي، أنت لم ترها من قبل
صالح- أعطني إياها لأراها!
رشيدة- أخاف أن تُصدَم حين ترى كم كنت جميلة في طفولتي، ومن شدّة جمالي أحتفظ بها ولم أعرضها لأيّ شخص، درأً للعين والحسد، وضحكت بغنج ودلال.

صالح- لا عليكِ، لن تكوني أجمل من اليوم.. فأنتِ اليوم أجمل نساء الأرض...
رشيدة- بما أنني هكذا بنظرك، فلا أمانع من أن أُريك الصورة...
صالح- هاتها.. تشوَّقتُ لرؤيتها.
ناولته الصورة، ابتسم للوهلة الأولى حين نظر إليها، ولكن سرعان ما بدأت ملامحه تتغير، قطّب جبينه، بدأت تظهر على وجهه علامات الاستغراب والدهشة، صمت وهو ينظر إلى الصورة، يبدو أن أمراً ما صدمه في الصورة، مرّ شريط الذّكريات في مخيّلته كلمح البصر، وتذكّر تلك الصورة التي لم تُفارق حياته يوماً، صورة أخته الصغيرة التي رافقته ووالده يوماً إلى المدينة فقاما بتصويرها، طالما أحبّ تلك الصورة، كان كثيراً ما يحملها ويُطيل النظر إليها، يبتسمُ لها وكأنّها أخته هي التي تقفُ أمامه، قلب الصورة إلى الأسفل بهدوء غير معهود، ثم سألها بعد أن تقارب حاجبيه وبدأت شفتاه ترتجفان: لمن هذه الصورة يا رشيدة؟.
رشيدة- جميلة أليس كذلك؟!.
صالح- (بعصبية): قلت لك لمن هذه الصورة؟ هيا أجيبيني بسرعة...
رشيدة- على رسلك يا رجل.. ما بك؟.
صالح- قلت لمن هذه الصورة.. أجيبي بسرعة.
رشيدة- ما بها؟ ما بك؟
صالح- تكلّمي يا امرأة...
رشيدة- هذه صورتي وأنا طفلة.. ما بها؟.
صالح- ماذا تقولين؟.
رشيدة- ما بك يا رجل؟ ما الذي حصل لك؟
صالح- البسي ملابسك فوراً، سنذهب إلى دار عمي الآن...
رشيدة- الآن؟ لقد أصبح الوقت متأخراً!
صالح- نعم الآن.. ألم تسمعي؟
رشيدة- أخبرني.. ما بك؟

صالح- قلت إلبسي بسرعة.. هيا اذهبي.. ولا تتأخري...
ارتدت ملابسها على عجلٍ، وصالح يتحرّك في المنزل جيئة وذهابا، يفرك يديه ببعضهما بعصبيّة وارتباك، غادرا مسرعَين، كانت ترتعد ولا تقوى على المسير من شدّة قلقها من غموض صالح وعدم تكلُّمه عن الموضوع، تمنّتْ لو أعلمَها بما يجري، ربّما أراحها، وربمّا زادها همّاً، وصل إلى بيت والدها عمر، قرع الباب والجرس معاً، بشدّة وتواصل شديدين وعينيه لا تفارقان الصورة، رغم أنّ النّور القادم من الشارع كان خافتاً، ألمٌ شديدٌ في صدره، ارتبط بما يقع تحت ناظريه وبين يديه. هرع عمر إلى الباب مذعوراً، والحشرجة في صوته، نادى بصوت عال: من؟... من هناك؟
صالح- أنا يا عمي.. افتح الباب بسرعة...
عمر- ما بك؟.. لقد أمَتَّني ذعراً...
صالح- أدخلنا أولاً يا عمي.
عمر- تفضلوا.. أدخلوا.. ولكن ما شأنكم؟
صالح- عمي... عمي...
عمر- على رسلك يا ولدي، تريَّث قليلاً...
صالح- عمي.. آآآه يا عمي...
عمر- هل تشاجرتم يا ولدي؟ أخبرني.. ماذا حلَّ بكم؟.
صالح- لا.. لا يا عمي.. ليتنا تشاجرنا!
عمر- إذاً فالأمر جلل.. أخبرني بما حصل يا ولدي!
صالح- أكثر مما تتوقع.. يا ويلي يا ويلي أكادُ أُجنّ!
عمر- أنت ترعبني.. هيا تكلم.
صالح- لمن هذه الصورة يا عمي؟
عمر- "ناظراً إلى الصورة باندهاش شديد".. هذه صورة رشيدة ابنتي يا ولدي.
صالح- لا يا عمي قل غير هذا!.
عمر- هذه صورة ابنتي رشيدة يا ولدي.. ما بها؟.

صالح- هذه ليست رشيدة قل غير هذا!
صمت عمر قليلاً، طأطأ رأسه مفكراً، شهق بحرقة ظاهرة، نظر إلى الصورة مرة أخرى، مرّ بخاطره شريط ذكرياته بفلسطين وما جرى لها، شريط الشتات والغربة، شريط التهجير الذي حصل.
مرّ الشريط في خياله في ثوانٍ معدودة، لقد فجّرت هذه الصورة كلّ الذكريات الأليمة عند عمر، كان النزوح يتداخل في رأسه من عام 1948م ليربطه بعام 1967م.. ذكريات القتل.. والألم.. والتهجير.. والضياع.. الذي ألمّ بالناس.. شريط الفَقْد والتفسّخ بالعائلات.. لم يحمل في جعبته إلّا الفواجع والآلام.. يحمل القتل والرصاص الصهيوني.. شريط التّدمير للمنازل والمؤسسات.. يتلوّن ما بين الأسود والأحمر.. أطفال ونساء رآهم يقتلون أمام عينيه، ذكريات قتل جماعي، مذابح لم يعهدها التاريخ من قبل، شريط لا يحمل في جعبته سوى الموت والدمار، رفع رأسه.. تنهّد بحرقة، جال بنظره على من يقف ومن يجلس، كانوا كلهم قلقين، يتساءلون في قرارة أنفسهم: ماذا هناك؟، يبدو وكأنّه أمرٌ جلل، الكل ينتظر تلك اللحظة التي سيتكلم بها عمر، تمنّتْ رشيدة لو أنّها عادت طفلة، إلى يوم تصويرها هذه الصورة.
قاطع صالح شرود عمه، وقطع الصمت الذي أطبق على الجميع، وقال: عمّي بالله عليك.. تكلّم.. بسرعة.. أرجوك.. هيّا...
عمر- على رسلك يا ولدي.. وسأتكلم بكلّ ما أعرف الآن.. وها هي عمّتك ستشهد على كلّ ما سأقول، فقط أرجوك أن تلتزم الهدوء، كي أستطيع توضيح الأمر.
كانت رشيدة والباقين كأنّ على رؤوسهم الطير، الاستغراب الشديد والذُّهول، هما العلامتان البادیتان على محيّاهم، ساورهم الخوف، كانوا ينتظرون بشوق شديد لسماع ما سيقوله عمر، يتساءلون باستغراب: ما هو الموضوع؟ ومن هذه المرأة؟ تبدو كالذّبيحة التي تنتظر سكّين الجزّار.. هم يعرفون بأنها رشيدة.. لكنّ الحقيقة عند عمر وزوجته وجيهة.

وجيهة تنظر إلى رشيدة بألم وحسرة، عينيها تذرفان الدّموع، هي تعلم الحقيقة، ولكنْ.. يبدو أنّ هناك أمراً عظيماً لا تعلمه، هي تنتظر مستغربة أيضاً ومندهشة من صالح، لتكن رشيدة من تكون.. ما الذي يفيدني؟، ما الذي أوصله إلى حالةٍ تصلُ حدّ الجنون؟ إنّه في حالة هستيريّة.. هل جُنَّ الرجل؟!.

قطع عمر ما هم فيه، وقال: صلّوا على رسول الله محمد.. ففي عام 1967م عندما قام الصهاينة بالاعتداء علينا في فلسطين.. اعتقدنا أنه سيصيبنا ما أصابنا عام 1948م، وأن اليهود سيقومون بتقتيلنا وذبحنا.. لقد قاموا بمذابح عديدة هناك.. فرّ العديد من العائلات إلى الجبال، حتّى نبتعد عن جيوشهم ودباباتهم.. عندما علمنا بأنّهم قاموا باحتلال بلدنا.. قرّرنا الهجرة إلى شرق الأردن.. هذا هو حالنا.. هجرة تتلوها هجرة.. ننتظر العودة.. لكن، بدلاً من العودة، يعود التّهجير والشتات مرّة أخرى. في الجبال، لم نستسلم لضرباتهم ومدافعهم وطياراتهم، خلال سيرنا باتجاه الشرق، من قرية (ذنّابة) قضاء طولكرم.. وقعت بالقرب منّا قذيفة مدفع.. انتشرت شظاياها في المنطقة.. كنّا نسير أنا وزوجتي وابنتي رشيدة.. شظيّة أصابت طفلتي فقتلَتها.. هذه الطفلة التي تجاوز عمرها السنتين تقريباً، قدرُ الله كان أقوى منّا جميعاً، لقد أصيبت رشيدة بشظية في رأسها أدّت إلى استشهادها على الفور، قمت بدفنها بالقرب من قرية (بيت ليد)، تحت شجرة خروب وارفة ظلالها، علّنا نعود يوماً ما ونقرأ الفاتحة على قبرها!

ما إنْ فرغتُ من دفنها هناك، حتّى رأيت طفلة تكاد تكون بعمرها، كانت هذه الطفلة تسير وتبكي بكاءً متقطّعاً، تقدّمت إليها.. مسحت دمعةً كانت تنساب لتبلّل خدّين ورديّين، وكأنّني أمسح بأصابعي على وجه رشيدة. احتضنتها.. قبّلتُها.. ومسحتُ بكفّي على رأسها، فوضعت رأسها على ذراعي مناغية .. بابا.. بابا.. وكأنّها تقتنص منّي كلّ ما أملك من عطف وأبوّة منحتُهُ لرشيدة من قبل، وأمنحه لهذه الطّفلة التي ناديتها دون شعور:

"رشيدة.. حبيبتي.. اهدئي فأنت في حُضنٍ آمنٍ"، بدأتُ أسألها عن اسمها وعن أهلها، سؤالي هذا كان عبثيّاً، فالّتي بعمر رشيدة لا تملك أن تُجيب على أسئلتي، عندها طلبتُ من وجيهه أنْ تحملها وتحاول أنْ تُؤنسها، لكنّ وجيهة رأت في عينيها الباكيتين شبهاً من عينيّ رشيدة رحمها الله. ارتمت الطّفلة على صدر وجيهة، فألقمتها ثديها، وأرضعتها حتّى ارتوت وغفت.
هذه الطفلة لا تحمل معها أيّ شيء سوى أنها تحمل في يدها هذه الصورة، التي تتمسّك بها وكأنّها لغز حائر على شفاه العابرين. نعم.. هذه هي الصورة.. لا زلت أذكرها جيداً، كأنّ الزمن يتقارب.. الآن لأراه في لحظة وتعود ذاكرتي لأستذكرها، وبالطّبع الصورة كانت تخصّها. طفلة بهذا العمر لم يقنعها شيء إلا صورتها، يا الله..! طفلة بعمر البراعم الصّغيرة وتحمل صورتها؟! لقد كانت تتمسك بها وكأنّها قطعة من جسدها، عندها قلتُ لوجيهة: "لنأخذها معنا فإنْ سأل عنها أحد رددناها لهم، وإلا سنقوم بتربيتها بدل ابنتنا رشيدة". لم نعرف هل كانت هذه الطفلة من طولكرم.. ذنابة.. نورشمس.. شويكة.. ارتاح.. بلعا أو أيّة قرية أخرى..!
أخذناها وسرنا في الطّريق، كنت أسأل كلّ من ألتقيه عنها، لكنْ.. لم يتعرّف إليها أحد، كنّا نسألها عن إسمها فتلتزم الصمت وتعود للبكاء، أصبحنا نناديها برشيدة، تستجيب لاسمها الجديد وتتجاوب معه، حتّى أصبحت هي تقول عن نفسها بأنّها رشيدة، بقينا سنوات نعلن عنها لكلّ من نعرفه، حتّى أنني اتصلتُ مع برنامج "سلاماً وتحية" لكنْ.. بلا جدوى.
بقينا هكذا إلى أنْ بلغتْ سنّ السابعة، عندها قمتُ بتسجيلها في المدرسة بموجب شهادة الميلاد التّي تخصّ ابنتي المرحومة رشيدة، استمرّت في حياتها معنا على أنها رشيدة، قلت حينها بأنّ الله أخذ منّا ابنتنا ورزقنا بابنة بدلاً منها.
أمّا بالنسبة لهذه الصورة، فأنا لم أرها منذ ذلك اليوم إلّا الآن، هذا كلّ ما لديّ يا ولدي، ولكنني لا أعرف ما هو السر في هذا الموضوع؟.
صالح- السِّـــ...

لم يكملها صالح وخرَّ مغشياً عليه، بدأوا يتراكضون لجلب الماء ورشّه على وجهه، أحضروا "الكولونيا" ، وبدأوا يقرّبوه من أنفه ليستنشقه ويفيق، فعلاً.. أفاق وهو يشعر بإعياء شديد، عدم تركيز، حالة هستيرية، يصيح بأعلى الصّوت بين الحين والآخر، "فلسطين، فلسطين ".. ثم يصاب بالوجوم ويصمت.

هنا أدرك عمّه عمر بأنّه يجب عليه أنْ يستخدم حكمته كرجل كبير في السنّ، وبأنّ الأمر كبير ويستحق الاهتمام، ولا بدَّ له من تدارك الأمر والسيطرة عليه، عندها بادره بسؤاله عن فلسطين قائلاً له: يا ولدي، فلسطين ضاعت، اغتصبها اليهود واستولوا عليها، أنت بماذا، ونحن بماذا، ما بها فلسطين؟

لكن صالح كان يردُّ بالصراخ "فلسطين.. فلسطين".

عمر- يا ولدي أرجوك أنْ توضّح الأمر لي، ما لنا وفلسطين الآن.. أرحنا يا ولدي...

صالح- عمي، هذه الصورة ليست لرشيدة.

عمر- إذن هي لمن؟!

صالح- هذه لفلسطين.

عمر- من فلسطين؟.

صالح- فلسطين أختي.

عمر- ماذا؟ ماذا تقول؟ اتّق الله يا ولدي.

صالح- هي الحقيقة يا عمي.. هذه صورة أختي فلسطين.. أنا أعرفها!

عمر- وكيف كان ذلك؟ فهّمني.. وضّح لي الأمر، قلْ ما لديك بسرعة.. بسرعة يا صالح!

صالح- نعم يا عمي، كما قلت أنت، فحرب الأيام الستّة، خلّفت وراءها كوارث وشتاتاً عظيمين، وأختي هذه من إحدى ضحايا الشتات، فلقد فقدنا أختي الطفلة فلسطين في عام 1967م في الجبال الواقعة شرق مخيّم نورشمس، ولا ندري الجهة الّتي ذهبت إليها، كنّا مع الكثير من الناس في

الجبال، فارّين كغيرنا، إلّا أنّنا فقدنا هذه الطفلة، والتي كما قلت أنت، هي لم تكنْ تحملْ معها سوى هذه الصورة، والتي أعرفها جيداً، سألنا عنها كثيراً، لكنّنا لم نعثر عليها، هي لم تفارق مخيلتي ولا ذاكرتي يوماً، دائماً تأتي ببالي وأستذكرها، وبعد عدّة سنوات احتسبناها عند الله تعالى، والآن ها نحن نقع بكارثة عظيمة.. يا ويلي!.. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟.. أشعر بأنّ رأسي سينفجر من الحَيْرة.. عمي أتوسَّل إليك ساعدني.. أرجوك يا عمي عمر!.

اكفهرت وجيهة.. تصلّبت شفتاها وشَحِبَتا.. تغيّر لون بشرتها إلى الزُّرقَة المائلة إلى السّواد.. تحوّل بياض عينيها إلى الأحمر القاني.. بدت كلبؤة مفترسة من هول الصّدمة..! انهالت لطماً على وجنتيها وفخذيها.. بدأت تجوح وتنوح.. أوسعت صدرها لطماً.. قدّت جيوبها حتى انفضح المستور فخرج ثدياها اللذان أشبعا فلسطين إرضاعاً في يوم ما..! أخذتْ تندُبُ حظّهم وتقول: يا ويلتاه.. خيراً عملنا.. شراً لقينا.. ليتنا لمْ نخرج منْ دارنا.. ليتنا لم نلتقيها.. ليتنا لمْ نضمّها إلينا..! كان يوماً أسوداً ذاك اليوم الذي التقيناها به.. ألا لعنة الله على اليهود الذين شتّتونا، فأوصلونا إلى ما نحن فيه.. ماذا يُخبئ الزّمان لنا أيضاً..؟ هل هناك ما هو أمرّ وأصعب مِنْ هذا..؟ لا نطلب من الله سوى المغفرة والرحمة.!

عمر- على رسلك يا ولدي! كما ذكرت أنت فالمكان الذي وجدنا به الطفلة كان لا يبتعد كثيراً عن المكان الذي ذكرته أنت، أنا أعلم أنّ الأمر عظيم كما قلت.. لكنْ.. دائماً هناك حلول.. شرعُ الله تعالى لم يترك لنا شاردة ولا واردة إلّا وأعطانا لها الحل، غداً في الصباح سنذهب، إلى دائرة الإفتاء ونرى الحكم الشرعيّ في هذه المسألة... إن شاء الله تعالى.

كانت فلسطين جالسة واجمة لا تنطق بحرف واحد، بدأ لعابها ينساب من فمها، لا تنتبه لما يحدث معها، تنظر أمامها إلى الأرض، عيناها تتسمران، بدا عليهما الاحمرار الشديد، ما حولهما انقلب لونه إلى السّواد، لم تذرف دمعاً ولمْ تصرخْ صوتاً.. ربّما الذّهول أخرجها عن طور إنسانيتها، لا

يعقل أن يكون هذا صبراً وضبطاً للأعصاب، الأمر جلل والحدث فادح، ما حصل معها كان أكبر صدمة لها في حياتها، هي أصبحت عاجزه، فقط هو الوجوم ما بدا عليها، تجلس بلا حراكٍ أو كلام، لاحظ عمر عليها ذلك، طلب من وجيهة أن تأخذها لغرفة النّوم وتبقى معها، لم ينمْ أحد منهم في تلك الليلة، بقي الجميع يقظين، انقطع الحديث بينهم، إلاّ منْ ذكر الله، هو ما يتردّد على ألسنتهم ليقطع صمتهم، وصوت ديكٍ يصدح مِنْ بعيد إيذاناً ببزوغ الفجر، الكلّ واجم.. حتى السماء في تلك الليلة اكفهرّت وغطّتها الغيوم، بدأت الرّيح تهب تارةً مسرعة وتارةً بطيئة، هل هو غضب الله عليهم؟ أم أنّ الطبيعة تشاطرهم همّهم؟!

حتى السماء أعلنت غضبها، هي لا تمطر.. فالمطر خير.. فقط الغيوم تغطي السماء وتحجب نـــور القمــر، هل ضنّت السماء عليهم بنوره لتحجبه في تلك الليلة؟! كلّ شيء بدا سيئاً، أُرسِلَت تلك الغيوم لترسم على وجوهم الحيرة القاتلة، التي انعدم فيها اللون الفاتح، كلّ الألوان داكنة مائلة للسواد.. الكلّ يجلس مرتجفاً من هول الموقف وعظم الأمر، لكن.. لا بدّ للصبح أن ينجلي. فعلاً انجلى الصّبحُ بلا شمس. هل كلّ هذا كان تضامناً معهم، أمْ أنّه غضبٌ تكالبتْ به الطبيعة والسماء عليهم؟.

كان صالح يستعجل عمّه منذُ ساعات الصباح الباكر للذهاب إلى دائرة الافتاء العام، لكنّ عمّه كان يحاولُ أنْ يهدّئه متعللاً بأنّ الدّوام لم يبتدئ بعد. كم كانت هذه الساعات صعبة وطويلة عليهم! كأنّ كلّ ما مضى من عمرهم لم يعادل هذه الساعات بألمها وصعوبتها، أحسّوا بأنّ دورة الحياة قد توقفت هنا.. اليأس حطّم نفوسهم منَ الانتظار.. هم يتمنون لو يمرّ الوقت مسرعاً كلمح البصر، لكنْ، هيهات.. هيهات.. فاللحظة أصبحت تعادل ساعة أو أياماً.. والساعة أصبحت تعادل ربما شهراً أو سنة في نظرهم، إنَّ أسوأ أنواع المعاناة، هي معاناة الانتظار.!

بينما الجميع جلوس وكأنّ على رؤوسهم الطّير من هول ما سمعوا، عاد صالح لشروده وتفكيره إلى يوم نزوحهم، حين قامت الحرب في عام

1967م، أمر والده كلٌّ منهم أن يحمل ما غلا ثمنه وخفَّ وزنه، بدأ صالح يُفتّش في الخزانة لاختيار ما سيأخُذْ، وقعت بيده صورة أخته فلسطين التي أحبّها حُبّاً جمّا، نظر إليها للحظات.. قبّلها.. وضعها في عُبّه ليأخذها معه، رأته أخته، اندفعت نحوه.. تعلّقت به وهي تُشير إلى صدره، تطلبُ صورتها، أزاحها عنه بلطف.. أخرجها، ووضعها على السّرير، رأته أخته وهو يضعها هناك، حملتها.. أمعنت النظر فيها.. قبّلتها.. ضمّتها إلى صدرها وخرجت تُرافق والديها.

مع بداية الدوام، كان الجميع ينتظرون على باب دائرة الإفتاء العام بانتظار أنْ يحضر المفتي. صعدوا ينتظرونه في مكتبه، لم تمض سوى دقائق قليلة حتّى حضر المفتي، كان رجلاً خمسينيّاً، يشعّ النور من وجهه، أثر السجود باد على جبهته، ترتسم البسمة على شفاهه، فهو باسم المحيّا، بهيّ الطلعة، يبدو عليه الذكاء والفطنة. دخل مكتبه، وجد عمر وصالح ورشيدة بانتظاره، سألهم إنْ كانوا يفضّلون شُرب كأسٍ من الشاي، وافقوا.. لم يتكلم أحد منهم سوى المفتي، الذي أومأ بالترحاب بهم والابتسام في وجوههم، كان يحاول أنْ يُريحهم ويخفف عنهم، طلب منْ عمر أنْ يطرح مسألته، لكنّ عمر فضّل أنْ يكون المتكلم هو صالح.

بدأ صالح بالتنهّد والتكلُّم بشكل متقطع وغير متزن، حديثاً مشتتا ومرتبكا، يربط القديم بالجديد مبدياً غضبه واستغرابه في كل جملة يقولها. رشيدة تُديم النّظر إلى سقف الغرفة، عمر.. جلس مطأطئاً رأسه مغمضاً عينيه، بعدما انتهى صالح من حديثه.. طلب المفتي من عمر أن يتحدث، تكلّم عمر بما لديه من معلومات وعن كيفيّة حصوله على رشيدة، وكيف أنّه استخدم لها شهادة ميلاد ابنته التي قُتلت في الحرب، أنهى كلامه، عندها نظر المفتي إلى رشيدة وقال : يقول تعالى في كتابه الكريم في الآية رقم 5 من سورة الأحزاب:(ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله)، طلب منها الحديث، نظرت إليه بعينين جاحظتين زائغتين، فيهما احمرار شديد، وكأنّها تسمع الآيات لأوّل مرة، أو أنّها لا تعي ما تسمع، رفع عمر رأسه

كمن أفاق من غيبوبة، وتساءل في نفسه : لِمَ لَمْ أرُدّها إلى أبيها؟ لِمَ قُمتُ بتسجيلها باسمي؟! هي عاطفتي التي غلبتني، ولمْ أُفكّر بقوله تعالى: (هو أقسط عند الله) ؟! ونسيت أمر الله، فلو لَمْ أقُمْ بنسبها لي، وتبنّيها أمام النّاس والشّرع.. لربّما لمْ يحصل ما حصل.. " يا لَلْمصيبة! " أنا مَنْ قتل رشيدة مرّتين.. مرّة بموتها.. ومرّة بحياتها!

أجابت رشيدة المفتي بدموع ذرفتها، وشهقةُ الموت تَرْتجُّ بين ضلوعها.

لم يشأ المفتي أنْ يُطيل أكثر من ذلك، لقد أحسّ بأنّ رشيدة ربّما تكون قد أصيبت بصدمة نفسيّة شديدة. فقال: الآن سأعطيكم حكم الله وشرعه فيما تمرّون به وعليكم أنْ تقوموا بتطبيق حكم الشرع فوراً: بما أنّكما لمْ تكونا تعلمان بأنّكما أخويْن.. وحسب الأوراق الثبوتية التي تقدمتما بها إلى القاضي الشرعي في حينه.. وهي أوراق صحيحة، لذا.. فإنّ أولادكم، هم أولادٌ شرعيين ويبقون بأسمائهم ونسبهم.. منتسبين إلى والدهم ووالدتهم.. أمَا وقد ثبت الآن بأنكما أخوين، من أب وأم صحيحين، وتحملان نفس صفة النسب، فقد وجب التفريق بينكما فوراً، ولنْ تستمرّا أزواجاً، ولا تطليق بينكما، كون الحقيقة الجديدة لا تجيزُ زواجكما أصلاً.. لكنْ.. نظراً للظرف المجهول لكما عن صلة القربى، والذي وقعتما به عن غير علمٍ منكما، فقد وجب التفريق بينكما الآن وفوراً.. ويجب تعديل اسم المرأة من رشيدة العمر إلى فلسطين الأحمد، بناءً على شهادتكما.

خرج الجميع من عند المفتي، ورشيدة كأنّها تغيب عنْ الدنيا، لا بكاء.. لا صراخ.. لا كلام.. فقط جاحظة البصر.. تسير بهدوء تام ولكنْ.. بلا اتّزان وعلى غير هدى، عيناها مفتوحتان، لكنّها لا تدري عن وقع خطواتها أو أين تتّجه.! من المؤكّد أنّ ناراً ملتهبة تشتعل في صدرها، إلاّ أنّ النور الذي كان يتوهّج في عينيها قد انطفأ، فبدت وهي تقف بباب الدائرة كأنّها حيوان مُحنّط لا حراك فيه، أو كتمثال لا يُؤثّرُ فيه الحرّ ولا البرْد..!

بدا صالح هو الآخر وكأنّ مسّ من الشيطان أصابه، خرج إلى عمر ورشيدة، طلب منهما أنْ يتْبعاه إلى مصحّة للأمراض النفسيّة.

رشيدة.. ترفض فكرة الذهاب للمصحّة، لكنّهما أخذاها عنوة وعرضاها على الطبيب، أمر بإدخالها إلى المصحّة من أجل العلاج، كانت ترفض العلاج وتقوم بالشّتم والسب على الكادر الطبيّ وتكسير ما تطوله يدها، حالتها صعبة جداً، هي لمْ تستوعب ما حصل، أصيبت بحالة هستيرية، أمر الطبيب بأنْ يتمّ إدخالها للمصحّة حيث أنّ حالتها صعبة.

رافقتها ممرّضتان إلى غرفة خاصّة ومنعزلة أُعدّتْ خصيصاً للحالات التي تُشبه حالتها، تأبّطت كلّ واحدة منهما يداً من يديها، اقتادتاها كما يُقتادُ المجرم إلى مقصلة الاعدام، هاجت وماجت.. أزبدتْ وأرعدت.. بدت كلبؤة شرسة تُريد افتراس كلّ منْ يقترب منها، اسودَّ وجهها.. جحظت عيناها واحمرّتا كأنّهما عيني كلب مسعور، صُراخها ملأ المصحّة، رُعبٌ وخوفٌ جعلاها ترتجف كما يرتجف من تقطّعت به السُّبُل في يوم مُثلجٍ منْ أيام كانون، وصلن الغرفة التي لمْ تكنْ تتّسع لأكثر منْ سرير واحد، جدرانها تزيّنت ببعض الرسومات الطفوليّة، لها شبّاك صغير يرتفع بحيث لا تستطيع الوصول إليه، عليه شَبَكٌ حديديٌّ، بدت الغرفة كزنزانة لسجين خطير، لمْ تستطعْ الممرضتان السيطرة عليها، كادت أنْ تُسْقطهما أرضاً، استعانتا برجلين منَ العاملين بالمصحّة، أدخلاها إلى غرفتها، قاما بربط يداها ورجلاها في السّرير بمرابط أُعِدَّتْ خصيصاً لحالات مُشابهة، قامت إحدى الممرضتين بإعطائها حُقنة، سرعان ما هدّأتها.. ونامت.

استمر علاجها لأسبوعين متتاليين، بدأت بالتحسّن شيئاً فشيئاً، أمّا اليومان الأوّلان فقد كان يتمّ تنويمها وهي مكبّلة، فكّوا وثاقها.. أدخلوها لغرفة بها مريضتان أخريان، لم تتعايش معهما فكانت تُفضّل الوحدة على أن تُكلّمهما، كلّ واحدة منهنّ تعيش في عالمها الخاص، لا تُحسُّ بوجود الأخريات! حقيقة الأمر أنّها كانت ترفض الإقرار بمرضها، تقول باستمرار أنّها طبيعية جداً. لاحظ الفريق الطبي بالمصحّة أنّها كانت تكلّم أُناساً وهميين غير موجودين، تُطيل بحواراتها مع نفسها ومعهم، هي التي تسأل وهي التي تجيب، تزداد حركتها وانفعالاتها، تستمر في حالتها هذه،

لتنتهي بالصراخ والبكاء، كان لديها شعور قوي بالخوف من كلّ شيء حولها. كانت تتّهم عمر وصالح بأنّهما تآمرا عليها وظلماها في إحضارها لهذا المكان.

خلال زيارات عايد المتكرّرة لها، كانت تحتضنه وتبدأ تشتكي له متهمةً صالح وعمر بأنّهما تآمرا عليها وقاما بإحضارها لهذا المكان الغريب، طلبت من عايد أن يشتري لها لعبة جميلة، بعدما جاء بها، أخذتها بين يديها.. احتضنتها وكأنّها بنت لها، شرعت بالبكاء ومناجاة اللعبة، نادتها برشيدة، شكت لها بأنّ صالح وعمر يتّهمانها بأنّ اسمها فلسطين، تتّهمهما بتغيير اسمها ليُبعداها عن زوجها وأولادها. تقول للعبتها بأنّهما أصيبا بالجنون وهي تترفّع عن الرّد عليهما أو التعامل معهما...!

بعد شهر من العلاج، تمّ إخراجها منَ المصحّة مع وصفة طبية لحالتها النفسية، على أنْ تستمر بتناول العلاج ومراجعة طبيب المصحّة كلّ شهر.

صالح لم يذهب إلى دوامه منذ عودته من المصحّة حين أرسل رشيدة إلى هناك، حتى عند خروجها لم يذهب مع عايد وعمر لتخريجها، بل بقي ملتزماً البيت، كان صالح يمكث في البيت دون أنْ يقوم بشيء سوى التدخين، لا يتكلّم مع أولاده ولا يجلس معهم، هو دائم الشرود والسرحان، حتّى أنّ حركته تباطأت لتُصبح كحركة القرد الكسول، حين عادت رشيدة لم يكلّمها، بلْ نظر إليها باستغراب وكأنّه يراها لأول مرة، وهي لمْ تكلّمه أيضاً، نظرت إليه بنظرات غاضبة، وجلست في زاوية البيت لا تكلّم أحداً.

لاحظ عايد نظراتهما التي توحي بنشوب شجار بينهما، أخذ أمّه إلى غرفة أخرى، أصبحا بعيديْن من بعد تقارب، بات التقاؤهما يستفزّهما، هجرها صالح وبقي كلّ واحد منهما بغرفة منفصلة.

كان الأولاد خلال هذه الفترة يذهبون إلى المدرسة كالمعتاد، لكنّهم بدأوا يفرّون من دوام المدرسة، ثم بدأ الأولاد في المدرسة يضايقونهم بالكلام وبعض التصرفات حين علموا بحقيقة الأمر، بدأوا ينادونهم باسم "أبو الأخوال" أيْ أنّ أباهم هو خالهم، ازدادت المضايقات على الأولاد وكانوا

كلّما تشاجروا مع ولد بسبب هذا الكلام ، كان عدد المنادين بـ "أبو الأخوال" يتزايد بين طلّاب المدرسة، انتشر هذا الاسم حتّى أصبح جميع الناس ينادونهم به، بات صالح الأحمد وعائلته لا يُعرَفون إلا بهذا الاسم، ذات شجار في المدرسة، ذهب عايد والمتشاجر الآخر إلى المدير، تفاجأ بأنّه يخاطبه باسم "أبو الأخوال"، ساءه الأمر كثيراً، وقف مشدوهاً من مناداة المدير له بهذا الاسم، تمّت معاقبته على المشاجرة، انصرف يسكبُ دموع القهر وقلّة الحيلة، أحسّ بأنّ الرحمة رُفِعت من الأرض.!

عانت هذه العائلة عناءً لا يوصف بسبب هذا الاسم، كثرت شجارات عايد وعوّاد وعودة مع أولاد المدرسة والحيّ، كثيراً ما كانت تتمُّ معاقبتهم، حتّى أنهم تركوا المدرسة، باستثناء عايد الذي كان يصرّ على إكمال دراسته ومتابعتها، انقطعوا عن أولاد الحي، تمّ فصل الأبويْن من عملهما بسبب طول فترة الغياب، توقّف دخلهم فأصبحوا يعيشون من مدّخراتهم البسيطة، هاجمهم الفقر بشدة وقسوة، بدأ الأولاد العمل على الإشارات الضوئية، يبيعون "العلكة والمحارم الورقيّة"، أصبح عوّاد وعودة يرجعون بمبلغ جيد، ليس منَ البيع، وإنّما منَ الصّدقات. عايد ..ذهب إلى الحج أبو وصفي، الذي كان صديقاً لوالده، طلب منه أنْ يعمل عنده، فوافق الحاج أبو وصفي، داوم في فترات الصباح بالمدرسة، وفي المساء كان يعمل لدى الحج أبو وصفي.

عوّاد يتحرّق شفقة على والده ورحمة به مما هو فيه، اعتقد بأنّ الرّحمة تكون بالمعصية أحياناً، بدأ يجلب له الحبوب المخدِّرة، التي أصبح يتعاطاها حتّى وصل إلى حدّ الإدمان عليها. يعيش على الدخّان والحبوب المخدّرة وقليلٍ من الطعام والشراب.

أمّا عودة ، فقد تعرّف بشاب ملتحٍ اسمه براء، كان تأثيره على عودة كتأثير السّاحر على مخدومه الجنيّ، يأمره فيطيع.. يطلبه فيلبي، يقرّبه منه، يمدّه بكلّ احتياجاته، يعطيه المال يومياً على أن يذهب معه لحضور اجتماعات "الأحبّة"، هذه الاجتماعات التي كان يترأسّها بعض الأشخاص،

يسحرونهم بمعسول الكلام، يُدرّبونهم على حُسْن الطّاعة والولاء لأسيادهم.
لاحظتُ أنّ التّعب والإرهاق بدأ يُثقل على محدّثي فطلبت منه أن نقوم بتأجيل حديثنا ليوم آخر. سُرّ من طلبي الذي منعه الحياء مِنْ أنْ يطلبه ووعدني بأن يُكمل جميع قصصه في اللقاء القادم. ودّعته وغادرت وأنا أتشوّق لسماع أحداث الحكاية، التي بدأت تشُدّني لمعرفة تفاصيلها، وإلى أين أوصلت بعض الناس، وما هي المآسي الّتي حصلت لهم.

****

رشيدة التي كانت ترفض العلاج وتناوله، أصبحت حالتها تزداد سوءاً، بدأت تخرج من البيت في أيّ وقت، تسير في الشوارع على غير هدى.. تتيه في الحيّ.. يهزأ بها المارّة.. تدخل بيوت الجيران دون استئذان.. الناس يأتون الى دار صالح مطالبين صالح وأولاده بأن يقوموا باحتجاز "أم الأخوال" داخل المنزل، وعدم السماح لها بالخروج، إلّا أنّهم لمْ يستطيعوا ضبطها.
ازدادت الضغوطات على عايد الذي كان يحاول أنْ يتماسك ويضبط أمور عائلته، ضُغوطات من داخل الحيّ وخارجه، والدهم لا يخرج من البيت، لا يُكلّم أحداً من أبنائه، يُصبّرُ نفسه ويصبر على أمّه، جلس مع إخوته، تشاوروا مرّات عدّة حول طريقة تُجنبّهم مشاكل أمّهم، قررّوا أنْ يقوموا بربط أمّهم مِنْ رجلها بجنازير، تمتدّ لمسافة تسمح لها أنْ تبقى ضمن منطقة آمنة داخل البيت، لا تستطيع خلالها أنْ تقوم بالتخريب. تمرّ الأيام، والصور تزداد قتاماً أكثر فأكثر، إلّا من عايد الذي حاول أنْ يتماسك وأنْ يقوم بتغيير الواقع عن طريق دراسته وعلمه، حيث أنهى دراسته للدبلوم

في كليّة وادي السّير، لم يُعينه علمه بشيء، في مجتمع لم يرحم ضعفهم، فلجأ إلى المال الذي كان يجمعه من عمله وعمل إخوته، يقدّم الهدايا للناس، يتقرّب منهم، طمعاً في إحراجهم وتخجيلهم، طمعاً منه بأن يُعاملوه كعهدهم السّابق، وأحياناً أخرى لجأوا إلى المشاجرات مع الآخرين، لكنّهم لم يفلحوا في ذلك، فلا قوّة لديهم ليفرضوا بها ما يريدون، أصبحوا بلا حول لهم ولا قوّة، ازدادوا ضعفاً على ضعفهم، ووهناً على وهنهم.
أمّا عوّاد فقد تعرّف على بعض الشباب الذين لا عمل لديهم إلّا تجارة المخدرات والسرقة والإجرام، كان يجلب الكثير من المال مدّعياً بأنّه يعمل مع رجل ثريّ، وكان هذا الرجل الثري يشفق عليه ويمدّه بالمال الوفير، - كما كان يدّعي - لم يكنْ يَخفى على عايد حال إخوته، لكنّه لم يستطع التأثير بأيّ واحد منهم، ولم يستطع ثنيهم عمّا هم فيه من فساد وضياع، بات همّهُ كبيراً، الضّغوط تتزايد عليه، همّه يكبُر، مسؤولياته تتعاظم، لامُعين له، قراراته الخاطئة تكاثرت، تكالبت عليه الهموم من كلّ حدبٍ وصوب، القلق وكثرة التّفكير، قاداه إلى الاهمال في شؤون حياتهم، بات لا يعرف الليل من النهار، ينام ويصحو مذعوراً، تُطارده الأحلام المرعبة، يرى الناس وحوشاً غريبة الشّكل، قادمين لافتراسه وأهله الذين بدوا كخنازير ضعيفة.
ذات يوم، حضر إلى بيتهم براء، طلب الحديث مع عودة، تحدّثوا على انفراد لدقائق قليلة خارج المنزل ، بعدها، رجع عودة ومعه مبلغ كبير من المال فبادره عايد سائلاً عن مصدر هذا المال: ما هذا المال يا أخي؟
عودة- هذا ما تصدّق به أحد الأثرياء.. ارتأى أخي براء أنْ يكون هذا المبلغ من نصيبي لما نحن فيه، ورحمة بأبينا وأمّنا.
عايد- ولم لا تقومون بتوزيعه على الفقراء وعلى من يستحقونه؟
عودة- هناك مبلغ كبير جاءنا.. وهذا الجزء من نصيبي.
لم يكن الحديث يقنع عايد.. فالحُجّة ضعيفة، والإجابات لم تقنع عايداً، الذي سكت على مضضٍ وهو يعلم حقيقة هذه الفئة من الناس.!

خرج عودة مع صاحبه براء، دام غيابه لأكثر من أسبوع دون أن يظهر، بعد عشرة أيّام، تمّ الإعلان بوسائل الإعلام عن شبكة تخريبية، كان عودة أحد أفرادها، عند الحكم عليهم، تمّ الحكم على عودة بالسجن مع الأشغال الشاقة، لم تكن صدمة لعايد الذي كان يتوقع أكثر من ذلك لإخوته. أمّا عوّاد فقد اشتهر باسم "أبو الأخوال".. أصبح من تجّار المخدّرات، وترأس عصابة من الشّباب اليافعين، يحاول حلّ أكثر مشاكله عنْ طريق الرشاوي أو بالقوّة والتهديد بالسلاح. عايد يراقب ضياع أهله جميعاً، يعجز عن إصلاح إخوته وحلّ مشاكل والديه. تمرّ الأيام والسنون مُثقلة بالتّعب والهموم وضياعهم وفسادهم يتزايد، حُبلى بالإذلال والوحدة، لم يعدْ أحد يسأل عنهم أو يتواصل معهم، توحدوا وهم بين الناس، الحيوانات الكاسرة تتعايش أحياناً مع باقي الحيوانات، الضّعف لا يُعَدُّ سبباً لإخراج الضّعاف منها من الغابة، الكلُّ أخرجهم من حياته، كلّ هذا وعايد يزداد ضعفاً وهواناً.

ديوان الحج محمود يعمرُ كلّ ليلة بالسُمّار، أكثر حديثهم يدور حول "أبو الأخوال" وعائلته، البعض يعتبر أنّ ما جرى هو عار على هذه الأسرة، والبعض يتألّم لما جرى معهم، فهمْ لا ذنب لهم بما هم فيه، وكان هذا قضاء الله وقدره.

أصبح الحديث يتزايد عن "أبو الأخوال" وعائلته. في دار الحج محمود، فقد كانت النساء يجتمعن عند زوجته، في غرفة أشبه بديوان، من كثرة الإساءات التي تُصْدرها النساء حول هذه الأسرة، اعتذرت الحجّة أم محمود عن عقد أيّ لقاء للنساء في ديوانها، كانت تحترق ألماً وحسرة على هذه الأسرة التي لا ذنب لها، التهجير والشتات هو السبب في ذلك، فلولاهُما لَما حصل ما حصل.

في ديوان الحج محمود، تُعقَدُ تعليلة في نهاية الأسبوع، اجتمع فيها أكثر من عشرين رجلاً، يبدأ بمشاكل الحيّ، ثم ما يلبث أنْ يتحوّل للتندّر بمشاكل دار "أبو الأخوال".

أبو نضال- "يا إخوان احنا النا شهور بسيرة دار أبو الأخوال".
أبو مؤنس- آه، والله صحيح..
أبو نضال- "وبعدين.. مش رح نخلص"؟
أبو أيهم- يبدو أنّ الأمور تزداد سوءاً كلّ يوم.
الحج محمود- يا جماعة.. كان الله بعونهم.. ربّما نحتاج نحن لمزيد من المُعاناة لنُحسّ بالشفقة عليهم.. ما سيُقال عنهم ربّما سيفوق ما قد قيل.. لن نتباكى عليهم ولكنني أتمنى أنْ نبكي حالهم، نتسامر كلّ يوم وهم موضوعنا، ولكنّ أحدٌ منّا لمْ يُقدّمْ لهم شيئاً، ارحموهم كي يرحمكم الله.
الأبرص- الصحيح، أنّ أمّ الأخوال دمّرت الحارة.
الحج محمود- حرام عليك يا رجل.. الأمر ليس بيدها.. هي مريضة ويجب علينا أنْ نقف إلى جانبها، وهؤلاء إخوة لنا وأصابهم ما أصابهم.
الأبرص- وماذا سنفعل لها؟ هي لا تستوعب شيئاً، وبالتالي فهي مجنونة...
أبو نضال- "والله الأولاد بالحارة زادوها جنون".
أبو أيهم- وأبو الأخوال يجلس بالبيت ويدمن على الحبوب والمخدّرات.
أبو نضال- " وشو هوّ الحل يا مختار"؟
الحج محمود- والله الحل من عند الله.. لا يوجد بأيدينا ما نستطيع أنْ نفعله.
أبو تركي- "والأولاد شو بعملوا اتّجاه أمهم وأبوهم"؟
الحج محمود- بالنّسبة لعايد، هو يعمل بمنجرة الحج أبو وصفي، وبالنّسبة لعوّاد يقولون، أنّه أصبح زعيم عصابة وتاجر مخدرات.. أمّا بالنّسبة لعودة فهو بالسجن وحُكمَ عليه بالسجن مع الأشغال الشّاقة بسبب انتمائه لعصابة إرهابية.
أبو ياسر الدّلّال- يا إخوان.. كان الله في عَوْن النّاس، فمنذ عام 1948م والمصائب تتزايد على رؤوس إخوتنا الفلسطينيين، ألا تذكرون كيف أنّ التهجير والقتل الجماعي قام بالتسبّب في تشتيت الكثير من العائلات.. وأنّه

هناك الكثير من الحالات التي أصيبت بأمراض نفسيّة وعصبيّة، وأنّ الكثير منَ الإعاقات قد نتجت عنْ هذه الحروب.
أبو سيف- أستذكر عام 1948م حين قامت هناك مذبحة الدوايمة. هناك مثلاً محمد القيسيّة، والذي تعرفونه جميعاً، هذا الرجل كان عمره آنذاك خمس سنوات، وعندما جاء اليهود إلى البلدة قاموا بعمل مذبحة جماعية، وعندما بدأوا بإطلاق الرصاص على الناس، جاءت عمّته وألقت بنفسها فوق هذا الطفل لحمايته، أُصيبت بعدة رصاصات في جسدها مما أدّى إلى وفاتها، عندها فقد الطفل وعيه من هول ما يجري، أصيب الطفل برصاصة اخترقت جسد عمته، كان ينزف، حين جنَّ الليل، مرَّ أحد الناجين بمكان المذبحة، سمع أنين الطفل وتتبع صوته، وصل إلى الطفل، حمله على كتفه وجدّ السّير به ليلاً باتّجاه المستشفى في مدينة الخليل، وصل هذا الرجل الذي لم نعرف اسمه إلى المستشفى، أعطى الطفل للكادر الطبي وغادر.
أبو مؤنس (مقاطعاً)- ولكن كيف استطاع أهله الاستدلال عليه يا أبا سيف؟.
أبو سيف- في الحقيقة أنّ عمّه هو من افتقده، بعد تفقّد الشهداء والأحياء، وَجد أنّ الطفل محمد غير موجود ولا أحد يعرف عنه شيئاً، سأل الكثير من الناس عنه، أفاد أحدهم بأنّه سمع بوجوده في مستشفى الخليل ، ذهب من فوره إلى هناك ليجده بين المرضى والمصابين، أراد الله له النجاة والحياة، وها هو في عمان الآن.
الحج محمود- يا إخوان.. سياسة اليهود في القتل والتهجير والتشتيت هي أنْ تجعل الناس ينشغلون في لمّ شمل بعضهم البعض، وبذلك ينشغلون في البحث والسؤال، ويتركون موضوع الاحتلال، فيرتاحون بعدها منْ مشاكل الناس ومقاومتهم، لأنّ سياسة التشتيت تُؤتي ثمارها بالنسبة إليهم.
أبو ياسر الدّلّال- ولكنّ المقاومة لمْ تتوقف يوماً ما يا مختار.." ولا يهون الجميع".

أبو مؤنس- كانت المقاومة تبتكر الأساليب وتُطوّرُها، عندما كان الإنجليز يمرّون بجيباتهم المكشوفة، كان المقاومون يمدّون سلكاً معدنيّاً قويّاً ورفيعاً ويربطونه بين شجرتين وعلى ارتفاع بمستوى رقاب الجنود، يمرّ الجيب مسرعاً فيقطع السلك رقابهم أو يتسبب بجروح بليغة لهم.
الحج محمود- هذا صحيح، ولكنّ اليهود(العرصات) تنبّهوا لهذا الأمر وقاموا بإضافة زاوية معدنيّة في مقدّمة الجيب وترتفع لمستوىً أعلى منه، فتقوم هذه الزاوية بقطع السلك قبل وصوله لرقاب الجنود.
أبو أيهم- المهم يا إخوان.. ما هو الحل بدار " أبو الأخوال" الآن؟ - تساءل بعدما اعتدل عن متكأِه وأشعل سيجارته " الهيشي"-.
الحج محمود- أيها الناس، دعوا الخلق للخالق، ودار "أبو الأخوال" كان الله بعونهم، فمُصابهم جلل، ولعلمكم أنّ الحجّة أم محمود قامت بإلغاء ديوانها للنساء بسبب كثرة الحديث عنهم وإلقاء اللائمة عليهم والإساءة لهم، بدأت النساء في الخوض في حديث لا أصل له حول ما جرى، لذلك.. فضّلَت أنْ يتركهم الناس وشأنهم، فيكفيهم ما جرى لهم.
أبو نضال- "وانت يا حج.. شو ناوي تساوي؟.. بدك تلغي الديوان يعني؟!".
الحج محمود- لا طبعاً.. ولكنّني أفضّل عدم الخوض في هذا الموضوع بتاتاً.. راجياً أنْ يكون هذا هو آخر كلامنا بالموضوع.
يتوسط مضافة الحج محمود" نُقْرَة " تقع أمام مُتّكأه يشتعل فيها طرف من الفحم فيعطي وهجاً أحمر اللون ليضفي؛ جمالاً مميزاً لإنارة المضافة الخافتة، وكأنّها نجوم حمراء تتلألأ بطرف سماء سوداء وعلى جانب الجمر وُضعت دلال القهوة العربية، انحنى الحاج محمود للأمام قليلاً، أزاح إحداها، نظر بطرف عينه إلى شاب كان يجلس بينهم، أومأ له بأنْ يدير القهوة على الحضور إيذاناً بانتهاء السهرة.
في أحد أركان المضافة، كان يجلس أحدهم متوسّداً متّكأه، يتلثّمُ بشماغ أحمر وبلا عقال، لا يُرى من وجهه سوى عينيه اللواتي كانتا تظهران

وكأنهما خطان أسودان. لمْ يره الناس الاّ متلثماً، لذلك كنّوه بالملثم، فلا أحد يعرف اسمه سوى المختار الذي استقبله حين قدم إلى الحيّ وعرف قصته. أحياناً كانوا ينادونه بالملثم وأحياناً أخرى بالغريب. ما يميّز هذا الرجل أنّه كان لا يشاركهم حديثهم، بل كان يجلس طيلة وقته يستمع لما يدور من أحاديث ونقاشات، كان يشتري في المجلس ولا يبيع، فجأة اعتدل في جلسته وتربّع، تنحنح بصوت مرتفع، سكت الجميع وبدأوا ينظرون إليه مشدوهين، هذه كانت أوّل مرّة يتحدّث فيها. امتدّت يده اليمنى إلى علبة الدخّان التي كان يضعها أمامه ويضع فوقها قدّاحة الكاز، قام بوضعهما في حضنه، بدأ بإماطة لثامه وهذا ما لمْ يعتدْه الحضور، ليُماطَ اللثامُ عن وجه ببشرة سمراء لرجل" أجرودي " فلا شعر ينبت في وجهه كاملاً حتّى حاجبيه ورموشه وشاربيه. لمْ ينظرْ لأيّ منهم وإنما تناول علبة دخّانه، فتحها.. أخرج منها دفتر سجائره " الأوتومان "، اقتنص منه ورقة بهدوء تام، بدأ يضع فيها الدخّان بعد أنْ مدّدها بين اصبعيه السبابة والإبهام، ثمّ بدأ يلفّها حتى استدارت بقطرين مختلفين من كلّ جهة، قام بإزالة زوائد الدّخان من الأطراف وأعادها إلى العلبة هي ودفتر اللّفف وأغلقها. مدّ السيجارة ممسكاً بها من طرفيها بيديه وبدأ يقضم من حافتها بأسنانه العليا وشفّته السفلى ثمّ ينفثُ ما استقرّ على شفته، بلّ طرف السيجارة بريقه ثمّ قام بإلصاقها ببعضها، وضعها بين شفتيه، جال ببصره على الحاضرين، ثمّ قام بإشعال قدّاحة الكاز التي كان يرتفع منها خيط من السنا الأسود إلى ما فوق رأسه ليبدو منظره كدخان قطارٍ بدائيٍّ، مدّ السيجارة، أشعلها وسحب نفساً عميقاً.. رفع رأسه وهو ينفث الدّخان من بين شفتيه وأنفه ليصنع سحابة كادت تحجب وجهه عنهم، كان منظر خروج الدّخان وكأنّه شجار ينشب بين ما يخرج من بين شفتيه وما يخرج من أنفه ليمرّا فوق شفته الجرداء من الشوارب، ثمّ استأذن من الحج محمود بأنْ يتكلّم فأومأ له بالإيجاب. فقال:

روايتي لا يعرفها سوى المختار الحج محمود.. حين قدمنا من فلسطين، وكنت في ذلك الوقت فتىً يافعاً، نزلنا في جنوب المملكة، بدأنا نربي المواشي، كانت المراعي لا بأس بها، وكنت أنا أدرس في مدرسة القرية، وعند عودتي من المدرسة ألتَحق ُمتأبطاً كتبي بالمرعى لأساعد أخي الكبير في رعي الأغنام.
تحسّنت أوضاعنا المادّية فقام والدي بشراء قطعة أرض مجاورة للقرية، يقع وسط هذه الأرض بئر جمع، حيث كانت تتجمع مياه الأمطار من المنطقة لتملأ بئر الجَمْعِ هذا، وبعد عدّة سنوات قام والدي ببناء بيت يُؤوينا، جمعَنا على المحبة والوئام، قضينا به أياماً خففت عنّا مرارة الشتات والهجرة.. أنهيت دراستي في الكلية القريبة من القرية وتمّ تعييني مباشرة معلماً هناك.
قاطعه أبو ياسر الدّلال، الذي اعتاد أن يلفَّ طرفي شاربيه، ليُعيد اتّجاههما للأعلى، وقال: يعني شتات وغربة وبهدلة.
الملثم: رغم الشتات ومرارة العيش وسوء الحال، إلاّ أنّ عزاءنا كان في طيبة وحسن معشر أهل القرية التي نزلنا بها، والتي تكوّنت منْ عشيرتين اثنتين.
عاود الملثم يلفُّ سيجارة أخرى وسمات القلق والضجر بادية على وجهه، تأفّف بألم وحرقة وقال:
المشكلة ليست هنا، فنحن كنّا بحال أفضل من الكثيرين الذين هُجّروا وتشتتوا.
في يوم من الأيام وحال خروجي من المدرسة وكنت أجدُّ السير لألحق بأخي وأعينه على الرعي، فوجئت بسيارة شرطة تعترض طريقي، أوقفوني وسألوني عنْ اسمي ولمّا تأكدوا من شخصيتي أمروني بالصعود إلى السيارة ونقلوني إلى المنزل. فوجئت بالعديد من رجال الأمن حول بيتنا، انتابني خوف وقلق شديدين، سألتهم: ماذا حصل؟ فكان جوابهم بأننا ابتُلينا بدمٍ. عندها صرخت بأعلى صوتي مستنجدا بالله أنْ يلطف بنا.

أشعل الملثم سيجارته الثانية وبدأ ينفث دخانها من بين شفتيه وأنفه ليعيد رسم تلك السُّحب التي غطّت على وجهه، واستطرد قائلاً: دخلت البيت الذي كان كلّ منْ فيه يجهش بالبكاء والصراخ، كانت أمي وزوجتي تولولان وتنوحان وتذكران اسم أخي الكبير. تقدّمت ببطء إلى والدي وسألته : ماذا حصل يا والدي؟ فأفاد بأنّ شجاراً وقع بين أخي الكبير وأحد الرعاة من القرية، فقد أخي أعصابه وهوى بعصاه على رأس الراعي فخرّ هذا صريعاً، جاء أخي وسلّم نفسه للمختار، الذي قام بدوره بإبلاغ الشرطة، حضروا بسرعة وقاموا بنقله إلى سجن المدينة، أمرونا أنْ نمكث داخل البيت ولا نخرج لأيّ سبب كان. سألتهم عنك، فأفادوا بأنّهم سيقومون بإحضارك في الحال.

الملثم: والأغنام يا والدي...

الوالد: قام المختار باستلامها، وطلبت منه أيضاً أنْ ندخل بعشيرتهم وفقاً لعاداتنا وتقاليدنا العشائريّة، فوافق.

أبو سيف: أعانكم الله على ابتلائكم.. مصيبتكم عظيمة..!

الملثم: أختصر عليكم وأقول لكم بأنّ عشيرة المقتول طالبت بإعدام أخي وأمرونا بالجلوة. أخذتنا الشرطة ليلا وبسريّة تامّة إلى عمان بناء على طلب والدي، بعد أيام حضر إلينا المختار ومعه الشرطة وتمّ الاتّفاق على أنْ يقوم المختار بشراء الأغنام كما تمّ الاتّفاق على السعر، إلا أنّ المختار قام بدفع مئة دينار زيادة، رفض والدي إلا أنّ المختار أصرّ على دفع المبلغ الذي اعتبره دعماً وعوناً لنا.

الأبرص: وماذا حصل بعد ذلك؟ والبيت وأخيك؟

الملثم: بالنسبة للبيت فقد اشتراه أحد أفراد العشيرة الثانية بسعر مرتفع، أمّا بالنسبة لأخي فقد تمّ إعدامه بعد عامين منَ الحادثة، أصاب والدي الفالج على إثرها، وبقي طريح الفراش إلى أنْ توفّاه الله.

أبو نضال: "يعني هيك خلصت مشكلتكم؟".

الملثم: علمت قبل إعدام أخي بأنّ أحد إخوة القتيل طالب وما زال يطالب بالثأر، ومنذ ذلك الوقت ونحن نعيش بخوف ورعب، ومنذ قدومي لعمان وأنا أتلثم للآن كيْ لا يعرفني أحد.
أبو نضال: " والله أنا أول مرة بشوف وجهك ".
الملثم: الخوف جعلني أعيش هكذا، فأنا للآن لا أجرؤ على كشف وجهي.. أليس هذا شتات مرعب؟ هذا شتات خففت آثاره الدول التي استضافت المهجّرين، أمّا شتاتنا فلا أحد يستطيع أنْ يقوم بحمايته، فالذّئب ليس بحاجة لأكثر من ثوان قليلة لينقضّ على فريسته وينهشها، لذا.. سأبقى بهذا اللثام إلى أنْ يقضيَ الله أمراً كانَ مفعولا.
تناول الملثم علبة دخّانه والقدّاحة، وضعهن في جيبه، أعاد اللثام، استأذن وخرج.
لفت انتباهي غياب أبو مشعل "محدّثي" عن الجلسة والحوار، وعندما سألته عن ذلك أفاد بأنّه كان يمرّ بحالة مرضيّة أقعدته عنْ الخروج لفترة طويلة. فأعدت سؤاله عنْ مصدر أخباره فأفاد بأنّ أهل الحيّ والمنطقة لم ينقطعوا عنْ زيارته، وأنّ كلّ واحد منهم كان يأتي لزيارته فيُفرغ ما بجعبته من أخبار قبل مغادرته. قمتُ بسؤاله عن علي وحلا وما حصل معهما فأفاد بأنّهما ينعُمان بحياة سعيدة، وقد تحسّنت أوضاعهما الماديّة كثيراً وبأنّ حلا أنجبت توأمين هما يارا ويزن.

****

همّ ياسمين الأكبر، هو أنْ تعيش وتربّي ابنها، ولا همّ لها إلا إثبات نسبه لوالده.. دائمة التفكير في حلّ لهذا الموضوع، تقوم الليل يومياً، تُصلي وتلهج بالدّعاء إلى الله أنْ يحلّ مشكلة ولدها، لا تريده أنْ يُحسَب في

المجتمع منْ أبناء الزنا، فهو ابن شرعي لها ولفالح، فقط هي العادات والتقاليد بالزواج، قاما بالتعجّل بلعق عسلهما وتجاوزا العادات والتقاليد التي تَفْرضُ على المخطوبيْن أنْ يتمّ زواجهما بموافقة أهل الطرفين ومن خلال إشهار واحتفال، قطفا العسل، وجداه بطعم العلقم!
كم كان ذلك الحلم المخيف يراودها في منامها.. لم يترك لها ليلة واحدة، دون أنْ ترى تلك الكلاب تنبُحُ وتركض بسرعة هائلة باتجاهها.. تريد افتراسها مجتمعة، تقف لتصيح وتصرخ بأعلى صوتها.. ولدها فالح يقف خلفها ممسكًا بتلابيبها.. يصرخ ويستنجد.. بابا... بابا...
تدنو الكلاب منها.. لا تستطيع فعل شيء! هي لا تقوى حتّى على الوقوف أمامها.. تصرخ.. تصيح.. تستنجد..
تصل الكلاب على بُعد أمتار منها.. تتحلّق حولها وابنها.. تدور و تدور حول نفسها.. وفالح لا يزال ممسكًا بتلابيبها و يستنجد: بابا... بابا...
التفتت إليه مذعورة ومندهشة، ولدها يستنجد بأبيه الذي تُوفي قبل أنْ يكتمل جنينًا، كانت تتمنى هي الأخرى أنْ تستنجد بالدكتور فالح، تجثو على ركبتيها، وتلهج بالدعاء إلى الله أنْ ينقذها وولدها.
فجأة، يظهر منْ بعيد نور ساطع، لمْ تستطعْ أنْ تنظر إليه.. يقترب النور بسرعة مذهلة.. يلفّ على الكلاب.. فتفرّ جميعًا.. تنطلق هاربة بكل ّالاتّجاهات.. ويبقى النور منتصبًا أمامها.
بدأت ملامح النور بالتجلّي، نور بهيئة رجل، إنها تعرف صاحب هذا القِوام الممشوق، لكنّها لا تتذكره ولا تستطيع أن تتبيّن ملامحه! فالنور يبقى ساطعاً مشعاً منْ وجهه، تحمد الله.. يندفع إليها ابنها ليرتمي بحضنها.. يحتضنها بشدة باكيًا يقول " ماما... ماما حبيبتي.. أخافتني تلك الكلاب كثيراً.. لو كان أبي معنا لحمانا! ".
تحتضنه وتبدأ بالمسح على رأسه قائلة " لا تخف يا ولدي.. إنّ الله معنا.. لا يتركنا أبدًا.. يساعدنا ويحمينا.. أملنا دائمًا به".

تُلقي برأسها على رأسه، تغمض عينيها وتسترسل بالبكاء، لتفتح عينيها وتشكر ذاك الرجل النوراني الذي ساعدها، تنظر حولها.. فلا تجده!
هذا الحلم راودها أول مرة بعد حادثة الغرق التي تعرّض لها فالح في بركة أحد المنتزهات في دبي، حيث كانت تجلس على مقعد تظله مظلة تلونت بألوان قوس قزح، هذا المقعد الذي جاور بركة واسعة للسباحة، تحيط بها شجيرات الزينة والورود الملونة، فشكّل المكان لوحة جميلة يعجز أمهر الرسامين عنْ رسم مثلها أو بجمالها، الفراشات تنتقل منْ زهرة إلى أخرى فتزيد الأزهار جمالاً على جمالها، فالح يركض من هنا إلى هناك فرحاً مسروراً، يقفز إلى الأعلى محاولاً الامساك بإحدى الفراشات، تطير إلى شجيرة أخرى، استوقفته ألوان شجيرة تلوّنت بأربعة ألوان، استهواه اللون الأصفر منها، مدّ أنامله الصغيرة وبدأ يداعب وريقات الزهرة بلطف وحنان ،كأمّ تداعب رضيعها، لم ينتبه لتلك النحلة الصفراء التي كانت تمتص من رحيق الزهرة، تتلذّذ وهي تمتص الرحيق مختبئة في أحضان الزهرة، اقتربت أنامل فالح الصغير منها، فعاجلته بقبلة لإصبعه، جعلته يسحب يده بسرعة جنونية، بدأ يركض باتجاه أمّه على غير هدى، صراخه وعويله ملأ المكان، نهضت بسرعة عنْ مقعدها، وكأنّ مسّاً شيطانياً قدْ أصابها، ركضت إليه فاتحة ذراعيها لاستقباله، اقترب منها، ولكنّه بدل أنْ يصل إلى حضنها الدافئ، انزلقت قدمه فوقع في البركة، لمْ يكنْ يتقن السباحة هو ولا أمّه. كاد أنْ يغرق، لولا وجود رجل كان يسير قرب البركة، يدفع عربة تجلس فيها امرأة حسناء، امرأة مُقعدة، أصابها الذعر حين رأتْ الولد يتخبّط في الماء، يكاد أنْ يغرق، صرخت بالرجل مذعورة، طلبت منه إنقاذ الطفل، فما كان منْ هذا الرجل إلا أنْ ألقى بنفسه داخل البركة وهو يرتدي ثوبه الأبيض، أخرجه منَ الماء بسرعة.. بدأ يتفقده إنْ كان الماء قد دخل إلى جوفه.. بدأ يضغط على بطنه وهو يحنيه إلى الأمام.. لكنّ وضع فالح كان جيداً، فعلى ما يبدو أنّه لم يشرب كثيراً من ماء البركة، هجمت ياسمين على ولدها، انتزعته من

بين يدي ذلك الرجل، احتضنته وبدأت بالبكاء، بعد قليل رفعت رأسها، نظرت إلى ذاك الرّجل الوسيم، شكرته على حسن صنيعه، نظر إليها نظرة عطف، وغادر مسرعاً يدفع العربة. بدأ الخوف يتسرب إلى نفسها على ولدها. قررت أنْ لا تعاود الذهاب إلى أماكن السباحة والمنتزهات، ولكنّ فالح كانَ يحبُّ الخروج واللعب في أماكن يكثر فيها الأطفال. بدأت رشقات من المطر بالهطول، أسرعت عائدة إلى بيتها، في الطريق بدأ فالح بالبكاء، بكاؤه يدلّ على مرضه، جلست القرفُصاء في إحدى زوايا البيت تنظر إلى فالح الصغير وهو يغُطُّ في سبات عميق، بدأت تعود بذاكرتها إلى أيّام فالح الحبيب، الّذي كان يلازمها ما استطاع حين كانت تقع في أيّ مأزق أو مشكلة. عيونها ترنو إلى ربّ السماء وتلهج له بالدّعاء أن يحفظ لها ولدها فالح من كلّ مكروه، لم يتبقّ لها أيّ شخص يدبّ على أرض البسيطة سواه ولا سند ولا مُعيل إلاّ الله.

في الطّريق إلى أبو ظبي للاستمتاع والتنزُّه، تقود على مهل، أحسّت بالسيارة تنحرف منها، توقفت لتجد أنّ أحد الإطارات قد ثُقِبْ، وقفت حائرة تنظر إلى الإطار، فتحت خزانة السيارة الخلفية، أخرجت الإطار الاحتياطي، وقفت تنظر إلى الإطار ولا تعرف ماذا تفعل، فجأة تقفُ خلف سيارتها، سيارة جيب فارهة، يبدو على صاحبها أنّه رجل منَ الأثرياء.. لم تتبين وجه السائق أو منْ يجاوره بسبب التظليل لزجاج السيارة، ترجّل الرجل الذي يجلس بجانب السائق، كان شاباً وسيماً طويلَ القامة، بهيّ الطلعة، يضع على عينيه نظّارةً سوداء. ألقى عليها التحيّة مبتسماً، وقال لها: يبدو أنّ الله يسخرني لمساعدتك دائماً!

هي- وكيف ذلك يا أخي؟

هو- أَنقذتكِ في المرة الأولى، وها أنا ذا أُنقذكِ بالثانية.

هي- هذه الثانية ربّما! ولكنْ كيف كانت الأولى؟

أزاح نظارته عنْ عينيه ليتبين أنّه هو نفس الرجل الذي أنقذ ولدها فالح في المسبح. رآه فالح فاندفع إليه يحتضنه مسرورا مبتهجاً، وأمّه تقف

مندهشة! بدأت تحمد الله وتشكره على حسن صنيعه، لكنّه ردّ بأنّ الله هو منْ يسخّره لها، التفت للخلف.. أمر سائقه بالنزول وتبديل الإطار.
سألته ياسمين: هل لي بأنْ أتشرف بمعرفة اسمك الكريم؟
هو- أنا إسمي عبد الله ...ولكنّهم ينادونني بعبد الله الإماراتي.
ياسمين- على الرحب والسعة، وأنا ياسمين وهذا ولدي فالح، ولكنْ... اعذرني بسؤال آخر يا سيد عبد الله.
عبدالله- تفضلي واسألي ما بدا لكِ.
ياسمين- هل أنت صاحب مجموعة عبد الله الإماراتي للاستثمار الّذي نسمع به؟
عبدالله- نعم، أنا هو.. ولله الحمد.
ياسمين أتشرف بك.. وأشكرك على نُبْلِ أخلاقك وشهامتك.
عبدالله- العفو، ولكنْ هل لي بسؤال لوْ تكرمتِ؟
ياسمين- بكلّ تأكيد.. تفضل...
عبدالله- عذرًا، فأنا لمْ أرَ والد هذا الطفل في اللّقاءيْن!
ياسمين- فالح ولدي، توفي والده الدكتور فالح قبل ولادته.. رحمه الله...
عبدالله- وهل سمّيتِ هذا الطفل باسم أبيه؟!
ياسمين- نعم.. هو كذلك، ولكنّني وددتُ أنْ أسألك عنْ تلك المرأة الحسناء التي كنتَ تدفعها بالعربة، منْ تكون؟ وهل هي معاقة أم ماذا؟
عبدالله- حسنًا! وإلى أينَ تتجهين الآن؟
ياسمين- وددتُ أنْ أزور أبو ظبي لكي أُغيّر منْ نفسيّةّ ولدي فالح.. فأنا منذ ذلك اليوم لمْ أعدْ أذهب به إلى أماكن السباحة والحدائق العامة...
عبد الله- وهل لديكِ وُجهة معينة تودّين الذهاب لها؟
ياسمين- لا.. ربما نقوم بالسّير في شوارع أبو ظبي ونذهب إلى أحد المطاعم، وفي المساء نتمشّى على شاطئ البحر.
عبدالله- وأنا ذاهب إلى أبو ظبي أيضًا للتنزُّه، ما رأيكِ لو ترافقنا سويّة؟

قفز فالح فَرَحاً.. هجم على أمه وقال لها: " نعم يا أمي.. نعم.. أودّ مرافقة عمّي عبدالله إلى هناك"...
تردّدت ياسمين قليلًا، نظرت إلى السائق الذي أنهى تبديل الإطار وبدأ بإعادة أغراضها إلى حقيبة السيارة، مبديًا تقديره واحترامه لها، وعاد إلى "الجيب".
نادى عبدالله على السائق، أعطاه مفتاح سيارتها، وأمره بأن يعود بها إلى قصره في دبي، فتح أبواب "الجيب" واستأذنها هي وفالح بالصعود معه.
في الطريق أخبرها عبد الله بأنّ تلك المرأة هي زوجته، وأنها تعرضت لحادث سير أقعدها في تلك العربة، وهو يحبّها ولنْ يتركها، يقوم على خدمتها بنفسه ولا يسمح لأحد بأنْ يخدمها، فقط واحدة منَ الخدم، هي منْ تتابعها وتخدمها في غيابه.
استغربت ياسمين كثيرًا من تمسُّكه بها، ولكنّ استغرابها لم يَدُمْ طويلاً، حينما علمت كمْ كانت هذه السيدة تُسعده وتُحبه، وتخدمه بنفسها، لا تسمح لأيّ من الخدم أنْ يقوم على راحته وواجباته.
في الطريق الطويل إلى أبو ظبي، استهلّ عبد الله حديثه عن قصة زوجته "أمل"، فقال: الآن سأسرد عليكِ تفاصيل قصّتي مع هذه المرأة..
ذات صباح ربيعيّ جميل، كانت الشمس تنشر خيوطها الذّهبيّة لتعانق الأرض وما يدبُّ عليها فتسري في العروق لتنعشها، كنت أقفُ أمام بقالتي أستمدّ الدفء من تلك الخيوط الشمسيّة الذّهبيّة، وإذا بفتاة عشرينيّة تتّجه نحوي وكأنّها تخرج من بين تلك الخيوط، تسمّرت في مكاني وأنا أقف أمام بقّالتي، وقفت مشدوهاً، ارتبكت وأنا أنظر إلى تلك الفتاة الشقراء، زرقاويّة العينين، شعرها المسترسل على كتفيها كأنّه بعضاً من تلك الخيوط، ممشوقة القوام، تلبس تنورة تُبْرز جزءاً يسيرا من ساقيها، اللذين بديا وكأنّهما شمعتان تركُزانها، أحسست بأنّني أرى مُخَّ ساقيها.. فشعرت بأنني في الجنّة، أنظر إلى حوريّة من حواريها، تنتعل شيئاً خفيفاً لتبدو كحافية القدمين، ترتسم على وجنتيها ابتسامة لمْ أرَ في حياتي أجمل منها،

ثغرها الباسم كأنّه ياقوتة مرصّع داخلها باللؤلؤ، تمشي الهوينى، منتصبة القامة، وكأنّها تمُدُّ عنقها إلى السماء تُطاوِلها، اقتربت منّي، ألقت عليّ تحيّة الصّباح بلهجة لبنانية كلّها غنج ودلال، لم أرُدّ التحيّة لأنّني كنت ما أزال مشدوهاً بهذه الحوريّة، أعادت التّحيّة بصوت أعلى لتلفت انتباهي، تراقص قلبي فرحاً بهذه المعزوفة الموسيقيّة الجميلة، لست أدري هل كنت أستمع إلى مقطوعة موسيقيّة من باخ أو من بتهوفن؟ أم أنّه طائر الكناري المغرّد؟! رددتُ عليها التّحيّة، رحّبت بها، تأتأتُ بكلماتي، رجفةٌ على شفتاي فضحتني، بادرتني بقولها: أكيد أنتَ صاحب هذا المحل...

عبدالله- نعم، أهلاً وسهلاً بكِ، كيف أستطيع أنْ أخدمك؟

البنت- أنا ابنة أحد زبائنك وهو اليوم مريض وقد أرسلني والدي لأشتري بعض الحاجات من هنا، نحن نقطن بالقرب منك...

عبدالله- ومن هو والدك؟

البنت- إنّه المهندس المعماري أيوب...

عبدالله- أظنّه الرجل الأشقر، آه.. الطّويل.. صاحب السيّارة الزرقاء؟

البنت- نعم...

عبدالله- هو فعلاً أحد زبائني الذين أحبّهم وأحترمهم ولكنّني لا أعرف أينَ يقطنُ تحديداً!

البنت- نحن نسكن خلف تلك المحلاّت المقابلة لبقالتك، وتحديداً في البناية الوحيدة والمكوّنة من أربعة طوابق، نسكن في الطابق الأرضي، من الجهة الشرقيّة.

كنتُ أحاولُ أنْ أُطيلَ الحديث معها وأنْ أعرف عنها المزيد.. والمزيد، أخذتْ ما تحتاجه وفوقه قلبي وغادرت بعد أن نقدتني ثمن مشترياتها، لمْ أسعد بحياتي كتلك اللحظة، لمْ أحبَّ النقود كالتي استلمتها منها، أحسست بأنّها أخذت معها روحي ونور الشمس، ليبدو الصباح وكأنّه أظلم بغيابها، تساءلت في نفسي: هل خُلِقتْ هذه الفتاة من نور؟ يا إلهي..! مرّ ذلك اليوم بصعوبة لمْ أعهدها من قبل، التفكير بها لمْ ينقطع عنّي ولوْ للحظة واحدة،

في ذلك اليوم أغلقت بقالتي مبكّرًا لأعود لبيتي وأستلقي على سريري، أنظر إلى سقف الغرفة مفكرًا بتلك الملاك، التي سلبتني أفكاري، تمنّيت لو أنّ صورتها رُسِمتْ على سقف الغرفة.. لو أنّ طيفها يلوح لي بأيّ جهة يتحرّك إليها نظري، أفكّرُ فيها ولا شيء آخر غيرها، ولكن.. لستُ أدري كيف غلبني النّعاس فنمت.

نوم لذيذ.. تقلّبت على فراشي، تُحدّثُني نفسي وأحدّثُها.. وشُموسٌ تغزو غرفتي.. وأقمارٌ ترفُّ على أحلامي.. كأنّها العصافير.. وزقزقات الفجر.. لأصحو صبيحة اليوم التالي، استيقظت من نومي مبكّرًا على نُعاسٍ لذيذ، ما زال النّور يرفُّ بين أجفاني.. وأنا أمسح حُلُماً عاش في أوجاعي.. فسكن حدقة عيْني.. واشتكت الأخرى.. يا إلهي..! هل حقاً جاء الصّباح..؟! أسرعت بتجهيز نفسي، حثثت الخُطى إلى بقالتي، لربّما يكون الفجر قد أفاق هناك، فتَهِلُّ بنورها.. ودلال على لسانها، أشعَلَ في جسدي ناراً أحببتُها.. لماذا تُحبُني النّار..؟ وأنا أعشق النّور..! لم تكن تبتعد عن منزلي سوى عشرات الأمتار، العاملون قد حضروا، قمت بفتح البقالة وعيناي ترنوان باتّجاه منزلها ظناً مني أنها ستظهر بلحظة ما لأُمتّع ناظري بها، وأكَحِّلُ عيناي برؤيتها.. فتطيب نفسي، ولكنْ، هيهات.. هيهات، فالريح لا تجري كما نُريد! طال انتظاري وترقُّبي.. وفكري كلُّهُ باتّجاه منزلها، انقضى النّهار وتأخّرتُ بالإغلاق منتظراً ظهورها، غير فاقد لبصيص أمل، ولكن بلا جدوى.

عُدْتُ إلى البيت وأصابني ما أصابني بالأمس.. إلى أنْ غلبني النُّعاس ونمت، نوماً مُضطرباً.. تقلّبتُ في فراشي.. أغفو وأصحو.. كالطّير في عُشِّه.. لا يستطيعُ نوماً ولا حُلُماً.

في اليوم التالي صحوْتُ على صوت الهاتف، المتّصل هو أحد العمّال في البقالة، يسألني عن سبب تأخّري، عرفت بأنّ السهر والتعب، من كثْرة التفكير بها، جعلاني أغطُّ في نوم طويل، أسرعت بتجهيز نفسي وذهبت إلى عملي، هناك وضعت كرسيًا بالقرب من باب البقالة، عدت أرقب

الطّريق، علّها تظهر وتشرق شمسها، أو أرنو ببصري جهة بيتها، علّ طيفها يمرّ من أمامي، فأسأله عنها! جلستُ أفكّرُ ملياً بها، سأذهب في المساء إلى بيت والدها بحجّة زيارته والاطمئنان عليه، وما هي إلاّ ساعة من الزّمن، وإذا بسيّارة زرقاء، تقف أمام المحلّ، زُرقتها.. كزُرقة السماء المُشعّة، هممتُ بالهرولة إليها ولكنّ شيءٌ ما منعني من ذلك، بعد لحظات قليلة.. ترجلّ السائق، فإذا بها " أمل "، اتّجهتْ إلى الجهة المقابلة منَ السيّارة، فتحت الباب وكانت تُحاول مساعدة والدها على النزول، عندها هرولت لمساعدته قبل أنْ أُلقي عليهم تحيّة الصباح. دخلتْ تبحث عن مشترياتها وأجلستُ والدها بجانبي، تحدّثنا في مواضيع مختلفة. فضحتني عيناي وأنا أسترق النّظر إليها، لاحظ والدها نظراتي المتلاحقة لها، أستَرقُها في غفلة من عينيه الذّابلتين من التّعب، ظناً منّي بأنّه لا يراني، بعد انتهائها، نَقَدني ثمن المُشْتريات، هامّاً بالمغادرة، وألماً يُهاجم قدميه المُتْعبتين، نهض.. فطلبت منه السّماح لي بزيارته في بيته ليلاً للاطمئنان عليه، رحبّ بي بعد أنْ اجتهد برسم ابتسامة خفيفة على وجهه، حاول اصطناعها بسبب آلامه، كانت ابتسامة مجاملة ليس إلا..!

تكرّرت زياراتي لهم عدّة مرات، في كلّ مرّة ازداد لها حبّاً وتعلّقاً، وذات يوم، ذهبتُ لزيارتهم، فتحت والدتُها الباب، لم يَكُنْ جمالها يقلّ عنْ جمال ابنتها، بدت كالقمر المنير في الليلة الظّلماء، ألقيت عليها التّحيّة، وبادرتُ المهندس أيوب بابتسامة فيها الدّفء والمحبّة. تبادلنا الحديث، فلمْ أتمالك نفسي، وطلبت يدها من والدها.. معلناً استعدادي لتنفيذ كلّ ما يطلبونه منّي، وبعد أيّام ثلاثة جاءني الرّدُّ بالموافقة. لم تدُمْ خطبتنا سوى أيّام قليلة، تزوجنا وبدأنا حياتنا بسعادة لم يحلم بها زوجان في الدّنيا. مضت عدّة شهور ولم تَحْمِلْ، أخذتها لعدّة أطبّاء في الإمارة وخارجها، جميعهم أقرّوا بأنّها عاقر، ازددتُ تمسّكاً بها وازداد رزقي معها، حتّى أنني قمت بتوسيع بقالتي وزدْتُ عدد عمالي، كنت أزداد غنىً وسعادة كلّ يوم، وحبّنا يزداد ويكبُر...

ذات صباح، شمسُه حارقة تلفح الوجوه، وكان منْ عادتي أنْ أحضُرَ إلى عملي قبل العمّال، وجدتُّ أمام الباب رجلاً طاعناً بالسنّ يجلس مطأطئاً رأسه، أشعث الشعر أشيبه، طويل الّذقن، ثيابه رثّة، حذاؤه مقطّع، وكأنّه مشرّدٌ قَدِمَ إلينا منَ الفيافي والقِفار، تقدّمت منه وألقيت عليه السلام فلمْ يرُد، رفعت رأسه بيدي لأنظر إليه، وجدتّه أعمى وكأنّ عينيه مفقوءتان، قمت بفتح الأبواب، أنهضته بصعوبة.. تمسّك بتلابيبي بقوّة، أخذته إلى الدّاخل وأجلسته على كرسيّ. حضر العمّال، قمت بإعطائهم إرشادات العمل وأخذته بسيّارتي إلى المنزل.
لمْ أعرف لهذا الأعمى اسماً فهو أيضاً أبكم، ما أعرفه أنّ أحداً ما قام بوضعه أمام محلّي، قلتُ في نفسي لعلّ الله أراد لي خيراً بهذا الرّجل، زوجتي تأفّفت كثيراً من رؤيته في بيتنا، طلبتْ منّي إخراجه وتسليمه للشرطة، ولكنني أبَيْتُ إلا أنْ أحتفظ به، وأقوم على خدمته بنفسي لوجه الله تعالى.
قمت بتحميمه وتنظيفه وتعطيره من عطري الخاص، داومت على هذا الحال في خدمته وإطعامه، فكنت أواجه صعوبات شتّى للتوفيق بينه وبين عملي.
تمضي الأيّام ثقيلة عليّ، وأنا أحاول بزوجتي أنْ تدخل غرفته وتنظر إليه، ربّما يرقّ قلبها وتساعدني به، ولكنّها كانت تأبى وبشدّة، وذات يوم.. مرضتُ واشتدّ بي المرض، حتّى أنني بتُّ لا أستطيع حراكاً، ناديت أمل وطلبت منها أنْ تقدّم طعاما لهذا الرجل العاجز، والذي أسميته " مبروك"، حاوَلَتْ أنْ ترفض كعادتها، غبتُ في حُمّى أقعدتني أيّاماً، لا أعلم ما يدور حولي، ولم يبْق منّي سوى جسدٍ مُرْتجفٍ هزيل.
أصبحت تجارتي منذ قدومه تنمو وتزدهر بتسارع عجيب، حتّى أصبحتُ أمسكُ الترابَ بيدي ..فيقلب تبراً، كانت زوجتي تقول دائماً بأنّ الله يرزقنا بحسنة هذا الرّجل العاجز.
ياسمين- وبعد ذلك، ماذا حصل؟ لقد شوّقتني لأعرف المزيد!

عبدالله- سنوات أربع مضت والله يرزقني من واسع رزقه وأعمالي تنمو وتتزايد، فصبح عندي أكثر من شركة، وأنا أقول بأنّ الله يرزقني بحسنة المبروك،
ذات يوم أفقنا من نومنا متأخرين، هرعنا لنرسل له طعام الإفطار، دخلتُ غرفته، حاولت ايقاظه، لم يُفِقْ.. لمسته لأهزّه، يده ببرودة الثّلج.. باسم المُحيّا.. لا حراك به، رحل المُبارك، ولكنّ البركة بقيت.
أصبحنا نفتقده كثيراً، إلى أنْ جاء يوم، وطلبت مني زوجتي أنْ نخرج لنتمشّى في الشوارع، وكان هذا بعد منتصف الليل بقليل، لمْ أشأ أنْ أرفض لها طلباً رغم التّعب الذي حلّ بي، وبينما نحن نسير ونتبادل الأحاديث، بدأت أمل تشكو من انقباض في صدرها، حاولت أن أُدخِلَ السرور على نفسها مراراً، ولكنّها كانت تقول: أحسُّ بأنّ هناك أمراً جللٌ قادم. لم تكدْ تُكملها، وإذا بسيّارة تسير بتعرُّج واضح، حاولنا الإبتعاد يميناً، تبِعَتنا أضواء السيّارة، غبنا، وأصواتٌ تتهالك من بعيد، وأيدٍ تمتدُّ.. ترفعُ أجساداً مدميّة. صحوتُ في المشفى بعد أيّام، لم أجَدْ أمل بجانبي، سألت عنها.. أخبروني بأنّها لا تستطيعُ حراكاً، شُلَّ لساني قبل أن تُشَلَّ ساقاها. عالجتُها لسنوات، أجروا لها العديد من العمليّات الجراحيّة، لتصل إلى الحالة التي رأيتيها عليها، ومنذ ذلك اليوم وأنا أقوم على خدمتها، كما أنني كثيراً ما أقوم بإخراجها للتنزّه ومحاولة التخفيف عنها.
ظلَّ عبدالله حريصًا جدًّا على إسعاد ياسمين وفالح وإدخال السرور إلى نفسيهما خلال الرّحلة.. فالح الصّغير كان يتّقد ذكاءً، كثير الحركة.. يسأل عن أمور كثيرة، عبدالله يجيبه عن كلّ سؤالٍ دون ملل، ممّا أدخل السُّرور على نفس ياسمين، قام بدعوتهم لتناول وجبة من الأسماك، وشراء هدية لفالح الصّغير. بعد عودتهم، كثرت اللقاءات بينهم وكانوا كلّما سنحت لهم الفرصة، يخرجون لتناول أشهى وجبات الطعام.
كان فالح الصّغير يتعلّق بعبدالله بشكل كبير وغير معقول حتّى أنّه بدأ يناديه باسم " بابا عبدالله ".

ذات يوم وبينما عبد الله وياسمين يجلسان في أحد المنتزهات، و كان فالح يلعب بالقرب منهما على الرمال، ارتفع صوته فجأة - صارخًا - : أفعى.. أفعى...
التفتت ياسمين اليه مذعورة لتجد أنّ هناك حيّة تسعى باتجاهه، تذكّرت ما كانت تسمعه من النّساء المُسنّات، عن طريقة تعاملهنّ في حالة كهذه، حين كنّ يتعرّضن لمثل هذه الحالة، قامت بلفّ جديلة شعرها على سبّابة يدها اليُمنى، وشدّته بقوة مستذكرة ما كانت تقوله والدتها: (كنّا أيام البلاد " فلسطين " عندما نرى أفعى ولا رجال حولنا لقتلها، كنّا نلف جديلة من شعرنا على سبابتنا اليُمنى فتقف الحيّة ساكنة بلا حِراك لحين ابتعادنا عنها أو حضور من يقتلها).
اقتربتْ مسرعَةً إلى فالح، رفعته وضمّته إلى صدرها و هرولت مبتعدة عن الأفعى لبضعة أمتار، ويدها لا زالت تشدّ جديلتها والحيّة تسكن بلا حِراك.
تقدّم عبد الله و أمسك بالأفعى من رقبتها، رفعها وضغط عليها ففتحت فاها، بصق في فمها، وما هي الا لحظات حتّى تدلّت الأفعى للأسفل وكأنها عصا بلا حراك ، اقترب بها من ياسمين، وقال: لا تخافا، وألقى بها بعيداً.
اطمأنت ياسمين حين رماها عبد الله على الأرض، فإذا هي بلا حِراك.. هدأت نفسُها ونفسُ ولدِها.
في البيت، احتضنت فالح بقوة.. بكت بكاءًا مريرًا.. قبّلت رأسه عدة قبلات، وقالت: " عيوني تشتاقك يا د. فالح، رغم أن رسمك مطبوع بهما واسمك محفور بقلبي و رائحتك لا تفارق رئتاي. حتى أنّي أقف أمام مرآتي.. أنظر إليها.. أتأمّل أن أراك، فلا أجدك.. يضطرب كياني.. أتعجّب حين لا أحسّ بوجودك.. لا أرى صورتك في عيوني.. أنظر من حولي أفتّش عنك.. لا أدري هل أنا في حلمٍ أم خيال؟! يأتي صوتك من أعماق قلبي، خافتاً.. ضعيفاً.. يناديني.. يناجيني.. أعجز عن الرّد،

فأصمت.. يختفي ويغادرني.. يعتصرني الألم.. أصمتُ، فيختفي ويغادرني.. لا أرى صورتك حتى في داخلي.. أبقى وحيدة مكسورة.. أنتظر عودة طيفك، علّه يناجيني ويؤنسُني.!
مضت الأيّام والشهور وثلاثتهم يتعلقون ببعضهم أكثر فأكثر، سعادتهم كانت غامرة، إلاّ أنّها كانت ثقيلة على ياسمين، أخذهم عبدالله بزيارة إلى مجموعته الاقتصادية والتي كانت مكاتبها في أحد الأبراج في دبي.
أهدى "جيب" حديث لياسمين.
بدأ الحب يتعمّق في نفسيهما، طلب منها الزواج عدّة مرّات ، لكنها كانت ترفض، متعلِّلة بمهمتها التي جاءت من أجلها إلى الإمارات.. كانت قد شرحت له جميع الظروف التي حصلت معها بصدق وأمانة وبأدق التفاصيل.
تقبّل عبدالله كل ما جرى، أقرَّ بأن فالح هو ابن شرعي.. مما أثلج صدرها وسرّها كثيرًا.
أصبح التراجع في حياة دار "أبو الأخوال" كبيراً، والأمور تزداد سوءاً.. حاول عايد جاهداً إلغاء اسم دار "أبو الأخوال".. لم يستطع، وأخيراً.. استسلم للأمر الواقع وعلى مضض، إنّه القهر وقلّة الحيلة، نظر إلى حال والديه وإخوته، وقف عاجزاً عن فعل أي شيء لهم، أصبحت حياته في حيرة، قام بفتح "وَرشة" للنجارة، كان همّه أن يحترمهم الناس وينادونهم باسمهم كأي إنسان آخر، أصبح الناس يعايرونه بوالديه وإخوته، تجنَّب كل من يعرف قصّتهم أن يعمل لديه، أصبح الناس يتناقلون أخباره بتزايد، تأثر عمله كثيراً، مما اضطُرَّه لإغلاق "الورشة" وبيعها.
كل الأموال التي جمعها محاولاً تغيير الواقع من خلالها.. دراسته وعلمه، ورَفْع مستواه الاجتماعي، لم تعينه على تغيير الواقع المرير.. لا بل ازدادت الأمور تعقيداً وسوءاً.. من كثرة تفكيره واهتمامه بالموضوع.. ومن كثرة حزنه على ما وصلت إليه الأمور.. تفاجأ بإصابته بمرض السكري.. هو الآخر بدأ ينهار، وصل إلى حد القناعة بالعجز.. لمْ يُرِدْ

الاستسلام.. بقي يحاول.. ويحاول، لكن بلا طائل.. بدأ تفكيره يأخذ منحىً آخر سلبي.. بدأ يسأل نفسه: ما هو الحل؟ كيف ستكون النتيجة في القادم؟ تقدمت لطلب يد أكثر من فتاة، كان الرفض السريع ما يواجهني.. أصبحت منبوذا وأهلي داخل مجتمعي، أصبحنا كالطاعون، الكل يبتعد عنا، والكل يحاربنا.. ما هو ذنبي وذنب أهلي؟ هل حقاً أن الناس على حق؟ لا.. لا.. هي إرادة الله بخطأ لم يقم والداي باقترافه عن قصد أو علم.. يا الله يا الله! هذا ما فعله الشتات والتهجير. صراع مرير يسكن بين خلجاته، تُساوره شكوك بانهيار وشيك، قال في نفسه: لمْ أعُد أطيق صبراً أو احتمالاً.. لن أعدم وسيلة للحل.. لن أعدم وسيلة للحل.. فقد بلغ السّيل الزُّبى.. ما لمْ أكُنْ أتوقّعه هو رضوخ جدّي عمر لإلحاح جدّتي عليه بتركنا والرّحيل بعيداً عن أعيُنِ الناس إلى العقبة، ربّما أُعطيها العُذرَ فقط بسبب الضُّغوطات التي أصبحوا يوجهونها من الناس، فلمْ يستطيعوا الاحتمال، ولكن.. لمَنْ تركونا، ومن سيقف معنا، أحسبهم رمونا للذئاب تنهشنا أحياءً.. المجتمع لا يرحم.. لو كُنّا نعيش في الأدغال، لكانت الوحوش أرحم منَ الناس..! فيضٌ منَ الذّكريات تواردت على خاطره، بدأ يَعُبُّها عبّاً من بحر النسيان المظلم، تساءل في نفسه: هل إذا نَسينا هذا الاسم اللعين " أبو الأخوال " ينساه الناس؟! ربّما إذا استطعنا نِسيانه، نعيش بسلام وأمان! ولكن.. هل نستطيع دفْنَ تلك الذاكرة اللعينة المسماة بذاكرة النسيان...؟!

****

ذات مساء شديد الحرارة، من أيّام حزيران الملتهبة، التقى عبدالله صديقاً له، يعمل قاضياً في دبي، هذا الصّديق الأردني المغترب.. لمْ يلتقيه منذ

شهور، تمّ اللّقاء بمحض الصدفة، وذلك حينما كان عبدالله يتمشّى على شاطئ البحر، وخياله يدنو ويبتعد، يفكّر بياسمين، وإذا بالقاضي عادل يُناديه من خلفه، أدار وجهه للخلف، شاهد صديقه يبتسم فاتحاً ذراعيه لاحتضانه، تعانقا عناقاً حارّاً، اتّسم حديثهما بالدّفء رغم حرارة الجو العالية ورطوبته المُرتفعة.

لاحظ عادل أنّ عبدالله كثير الشرود، عديم التّركيز، مُشتّت الذهن، غير مُمعن لأقواله، سأله عن سبب قلقه وسرَحانه هذا، تنهّد عبدالله، مباشرة بدأ يبُثّ شجونه لصديقه، أخبره بأنّه أصبح أسيراً لحبّ امرأة أردنيّة تعمل بدبي، هام فيها عشقاً، طلبها للزواج مرّات عدّة، الرّفض هو ما كان يصل إليه دائماً، عاجله عادل بالسؤال عن أسباب الرّفض، إن كان هناك أسباب معلومة! جلسوا على الرّمال، سرد له عبدالله حكايتها من البداية.. إلى النّهاية، داعبا حبّات الرّمل وهما يتحدّثان، أحسّ عادل بأنّه يعُدُّها، نوّه عبدالله إلى أنّ سبب رفضها، هو انشغالها بمحاولة ايجاد طريقة قانونيّة لإثبات نسب ولدها، وبأنّها ستبقى بعيدة عن بلدها حتّى تَحُلَّ هذه المسألة الشّائكة، وأضاف بأنّ قلبه يحترق حباً، متمنيّاً الزواج منها. انفجر عادل ضاحكاً، ارتفع صوت ضحكاته حتّى انقلب على ظهره، تمدّد على الرّمال وبدأ يتقلّب يميناً ويساراً من شدّة انفعاله، نظر إليه عبدالله باستغراب مُقَطّباً حاجبيه.. استغرب من ضحكات وحركات صديقه الّتي لا موجب لها، سأل صديقه: ما الذي يُضحكُك؟ هل ألقيت عليك نُكْتة؟ أم أنّ حديثي يوجب الضّحك والاستهزاء؟!

عاد القاضي عادل يقهقه من جديد حتّى تساقط الدّمع من عينيه، حاول أن يتماسك وهو يُحاول أنْ يُطَمئن صديقه بعد أن رأى أنَّ الغضب بدأ يتملّكه، وقال: هي البِشارة يا عبدالله.. حلّ قضيّتك عندي.. أبْشِر يا رجل...

عبدالله- أتسخرُ منّي يا عادل؟!

عادل- لا... ولكنّ مشكلتك محلولة، والإجابة عندي!

عبدالله- وكيف؟! الحقني به، لقد شوّقتني كثيراً...

عـادل- لـهفتـك هـذه تُقلقنـي، ولكـن.. ألـم تسـمع بفحـص يُقـال لـه فحـص ال DNA؟.
عبدالله- بلى ولكنّني لا أملك معلومات عن هذا الفحص...
عادل- منذ بداية خمسينات القرن الماضي بدأت التجارب تُجرى على هذا الفحص والذي يُثبتُ نسب أيّ شخص سواءً كان حيّاً أم ميتاً، وهو الآن متوفر هنا بالإمارات والأردن وغالبيّة الدُّول العربيّة. عاد للضّحك مرّة أخرى، هنّأ عبدالله لوجود الحلّ لمشكلته مع ياسمين.
استعجله عبدالله بالمغادرة، أصبح يُهرول مبتعداً عن عادل، ثُمّ يعود إليه ضاحكاً مُدندناً وكأنّه طفل وجد ضالّته عند والده، أو كأنّه فراشة تنتقل من زهرة إلى أخرى.!
عاد إلى بيته.. اتّصل بياسمين طالباً لقاءها في اليوم التّالي، مبشّراً بخبر سعيد سيقوم بإخبارها عنه، أخبرته بأنّها هي أيضاً كانت تريد الاتّصال به لإخباره بخبر سعيد أيضاً، حاول كلاهما معرفة ما يريده الآخر، ولكنّهما قاما بالتّأجيل لليوم التّالي عند اللقاء، فرحهما أعادهما طفلين يستعجلان بزوغ فجر جديد، من أجل الفوز بأخبار لا شكّ بأنّها ستُسعدهما.
عند الظّهيرة، في اليوم التّالي، التقيا في أحد المقاهي، حضرا والابتسامات ترتسم على وجهيهما، فالح الصّغير ينطنط مسروراً لأنّه سيلتقي بعبدالله. جلسوا إلى طاولة تقع في زاوية المقهى، لم يكُن هناك أناس بقربهم، بادرته ياسمين وعلى عجل بسؤاله عن أخباره المُفْرِحة، أصرّ أن تكون هي البادئة، دعته للاحتفال في مساء ذلك اليوم بمناسبة يوم ميلاد صغيرها فالح الذي أكمل عامه التّاسع. استحثّه على الاستعجال بإبلاغها ما لديه من أخبار سعيدة، فهي بشوق شديد لسماع ما يُغبِطُها، الفرح غادرها منذ تُوفي د. فالح، إلّا من نسمات فرح خفيفة، تمرّ عليها مروراً سريعاً فلا هي تُكمل فرحها ولا هي تترك أثراً في حياتها.

سَعِدَ عبدالله بهذا الخبر.. قام عن كرسيّه.. قبّل فالح وهنّأهما بهذه المناسبة، قام بدعوتهما لعمل احتفال يحضره ثلاثتهم في المساء، وعد فالح بهديّة قيّمة.

شكرته ياسمين، طلبت منه اخبارها بما لديه وبلهفة، سرد لها ما دار بينه وبين صديقه عادل الذي لم يلتقيه منذ مُدّة، يبدو أنّ الله ساقه لحلّ مشكلتهما، ذكر لها كيف أنّ فحص ال DNA سيحُلُّ مشكلة إثبات نسب فالح الصغير، ومشكلة موافقتها على الزواج منه. رفعت بصرها إلى سقف المقهى، هناك لمبة خَفَتَ ضوؤها، نظرت إليها، عادت بذاكرتها إلى سنين طويلة مضت، وحديث والديها عن فلسطين، تذكّرت يوم السادس من حزيران عام 1967م وسقوط فلسطين بأيدي اليهود، وهو نفس التّاريخ الذي وُلِدَ فيه فالح، وهو اليوم الذي انتظرَتْهُ سنين طويلة لإيجاد الحلّ لمشكلة إثبات نسب فالح، وفي يوم الاحتفال بيوم ميلاده، لم يُخرجها من لحظات سرحانها هذه سوى حضور الجرسون وسؤالهم عمّا يودّون شربه، لمْ تُجِب الجرسون، اتّجهت إلى عبدالله وأخبرته بأنّها ستقوم بالسّفر إلى الأردن بأسرع وقت ممكن لرفْع قضيّة لإثبات نسب ولدها فالح، هذه القضيّة التي أقضّت مضاجعها لسنين طالت.

عادت إلى الأردن لاقتناص هذه الفرصة الوحيدة لإثبات نسب ولدها، حال خروجها من المطار، ذهبت إلى صديقتها رشيدة، هناك تفاجأت بما رأت، كان عايد يتواجد بالبيت، قدمت نفسها له على أنها خالته ياسمين، وأن من يرافقها كان ولدها فالح، رحَّب بها، حينما دخلت، رأت صالح مستلقٍ على فراشه، سلّمت عليه، رفع بصره إليها، برقت عيناه المُطْفأتان من التَّعب.. الجافتان من السّهر، لم يُكلّمها، عاد ينظر إلى الأرض، أخذها عايد لغرفة أمّه، سلّمت عليها، بادرتها رشيدة بالشتائم والسُّباب، أجلسها عايد بعيداً عن أمّه، طلب منها المكوث عندهم بعد أن شرح لها باختصار ما حصل معهم، لكنّها أصرّت على المغادرة، وعدته بالعودة يوماً ما، أعلمته بأنّها عادت لأمر هام وعاجل، وعند انتهائه ستقوم بزيارتهم للاطمئنان عليهم.

حزنت ياسمين حزناً شديداً لما أصاب صديقتها رشيدة، بعد حديث عايد وباختصار عن كل ما حصل معهم والحال الذي وصلوا إليه، وأنه يعاني معاناة شديدة ومؤلمة من وضع أهله ووضعه وخاصةً مع الناس الذين أصبحوا لا يتقبلونهم ولا ينادونهم الّا بدار "أبو الأخوال"، تذكّرت د. فالح وبداياتها معه، وكيف أنّ رشيدة وصالح كانا هما السبب بتعرُّفها عليه، تساءلت في قرارة نفسها عن ابتلائها وصديقتها، تنهدّت بحرقة ومرارة وغادرت.!

استأجرت ياسمين شقة مفروشة في منطقة بعيدة عن دار أبي عايد لحين شراء شقة أخرى.

في اليوم التالي، ذهبت إلى أحد المحامين المشهورين، وكّلته برفع قضية في المحكمة تطلب فيها إثبات نسب ولدها فالح لأبيه الدكتور فالح.

قبلت المحكمة دعوتها.. بعد عدة جلسات طلبت المحكمة من الطب الشرعي بإجراء هذا الفحص، جاءت النتيجة إلى المحكمة، صدر الحُكْمُ بوجود جدّ الطفل بصحة نسب الولد لأبيه، أكّدت المحكمة على شرعيّة فالح، كما أكّدت على جميع حقوقه في النسب والإرث.

في اليوم التالي ذهبت ياسمين لزيارة صديقتها رشيدة، جلست معها وهي مكبّلة بسلاسل الحديد، عايد كان ينظر بحسرة وألم لما حصل، حاول اصطناع البسمة حينما كانت ياسمين تخاطب والدته، كانت تصرّ على مناداتها برشيدة، هي الصديقة التي أحبتها، الصديقة التي رافقتها في بداية مسيرتها، التي كانت سبباً في زواجها من د. فالح، حدّثتها وكأنّها في وعيها، روت لها كلّ ما حصل معها، من لحظة مغادرتها إلى حين عودتها، لمْ تنقطع عن البكاء خلال حديثها، كانت فلسطين تحاول مقاطعتها بين الحين والآخر، تشتمها وتحاول ضربها، تفهّمت ياسمين ما حلّ بصديقتها وحبيبتها، وعدت عايد أن تعاود زيارتهم بعد أسبوع، تمّ تحديد موعد الزيارة ،على أنْ يكون بعد صلاة العصر إن شاء الله.

أُثلج صدر عايد بزيارة ياسمين لهم، هي الوحيدة التي تحاول أنْ تقف إلى جانبهم، وهي الوحيدة التي تفهّمت ما حصل معهم، أخيراً جاء منْ لا يُناديهم بدار أبو الأخوال، ولكنّ الأفكار بدأت تتناوب في رأسه، فهو تارة يرى في ياسمين الخالة والصديقة المقرّبة من أمّه وتارة أخرى يراها كباقي أهل الحارة، عندما كانت توجّهُ حديثها إليه، تُخاطبه فتقول: أمّ.. أمّ.. ولا تكملّها، فتتراجع وتقول له: رشيدة.! وكأنّها لا تعترف بأنّها أمُّه التي أنجبته وهي التي ربّته، هل فقد صلته بها كأمّ؟ هل أصبح بلا أمّ ولا أب؟ ما هو مدى ارتباطه وصلته بوالديه؟ تشابكت الأفكار في رأسه، أصبح يعجز عن التّفكير! احساس أخذه بعيداً ليرى أنّ علاقته بوالديه كانت مؤقتةً كعلاقة الحيوانات بوالديها.!

فرحت ياسمين فرحاً يعانق السماء، بعد أن تقبّل جدّ فالح الصّغير أمر المحكمة وعلى مضض، لم يكُن له أيّ خيار إلاّ الرُّضوخ والقبول بالحكم. قبل خروجهم من قاعة المحكمة، اندفع فالح الصّغير نحو جدّه، تعلّق في رقبته، كتعلُّق الرّضيع بأمّه، لم يجد الجدُّ بداً من احتضانه، تحرّكت مشاعره اتّجاه حفيده، احتضنه وبدأ يُقبّله ويشمّه، وجد فيه رائحة ولده المرحوم، كان المشهد عاطفيّاً، بدأت دموع الفرح تنساب من عينيّ ياسمين، اقتربت منهما واحتضنتهما، ثمّ أجهت بالبكاء من شدّة فرحها.

دعا الجدّ الأقرباء والأصدقاء لحفل في بيته، أعلن لهم فيه عنْ حفيده فالح، ذكّرهم بتلك الحادثة المشؤومة، موضحاً لهم ما جرى، أبدى الجميع سعادتهم من هذا الأمر، محاولين إظهار سرورهم وابتهاجهم، متبادلين الغمز واللّمز.

بعد صدور حكم المحكمة والذي أثبت نسب فالح الصغير، واعتراف جدّه به وبنسبه.. اتصلت ياسمين بعبد الله وأعلمته بما جرى، فما كان منه إلا أنْ طلب منها عنوان عمها لزيارته والمباركة.

حضر عبد الله من الامارات.. زار جدّ فالح.. تعرّف إليه في جلسة جمعتهما معًا، لاحظ الجدّ مدى تعلُّق حفيده بعبدالله، كما لاحظ بأنّه يخاطبه بـ (بابا عبدالله).
فهم أنّ هناك علاقات حميميّة تربطهم ببعض، التقى عبدالله بياسمين واتّفق معها على الزواج، سُرَّ فالح الصّغير عندما أخبراه بأنّه سيعيش معهما في بيت واحد، أخبرت ياسمين عمّها بقرارها الزّواج من عبدالله، اشترط الجدّ بقاء حفيده عنده، حاولت ياسمين أن توضّح له أنّها لا تستطيع فراقاً لولدها، عبدالله أبدى استعداده بأن يُديم تواصُل فالح الصّغير مع أهله، أمّا فالح الصّغير فقد انزوى بعيداً عنهم يرقُبُ النتيجة، والدّموع تنهمر من عينيه، حالما سَمِعَ موافقة جدّه، ركض إلى أمّه يحتضنُها.
اتصلت ياسمين بسجى، تكلمتا مُطوّلاً، لم يَتركا شاردة ولا واردة إلاّ وتحدّثتا بها، فرحت حين أخبرتها سجى عن حملها الثاني بأنثى كما أخبرها الأطبّاء، سكتت ياسمين خلال الحديث وكأنّها تُفكّرُ بأمرٍ بعيدٍ عن محور حديثهما، سألتها صديقتها عن سبب سكوتها وسرحانها، تنهدّت وقالت: ليت لي قلبين..!
سجى- ولِمَ..؟
ياسمين- أعيش اليوم بين حُبّين.. حبٌّ ميّتٌ.. وحبٌّ حَيّ..
سجى- ولكنّ البقاء للحيّ..!
ياسمين- وهل أستطيع شطر قلبي نصفين؟ نصف لعبدالله ونصف للفالحيْن!
سجى- سنّة الحياة الاستمرار.. لا تنتهي حياتنا بموت شخص.. نعم الحب الأول لا يُنسى.. ولكنّ الاخلاص في الحبّ للقادم لا بُدَّ منه.. أنصحك بأنْ لا تذكُري الماضي أبداً.. فتكوني خسرت الاثنين!
ضاقت بي الدنيا، إلاّ من عواطف جيّاشة اختزنتُها في صدري، لمْ تَدُمْ طويلاً وهي ترقُدُ في ثناياي، تحرّكتْ وأسرعتْ تُهرول بلهفة وشوق إلى عبدالله، إنّه العشق يا صديقتي..! أليس كذلك؟!

بعد عدة أيام من زواجهما.. في أحد الفنادق.. طلب عبد الله المغادرة مع زوجته وولدها.. فاستأذنته ياسمين بزيارة قصيرة لصديقتها رشيدة قبل السفر.

****

قبل زيارة ياسمين بيوم واحد كان موعد الإفراج عن عودة، ذهب عايد في الصباح إلى السجن، في طريقه إلى هناك، جلس في الحافلة خلف السّائق تماماً، ينظر إلى الخارج أحياناً، يرى النّاس وكأنّهم قرود يتنقلون من مكان إلى آخر، يبدأ بالضّحك مستهزئا بهم، يعود للنظر إلى المرآة، يصل احمرار وبريق عينيه إلى عينيّ السّائق، تنقلب ضحكاته إلى همهماتٍ وخوف، كان يرى الرّعب والخوف في وجهه، تنفّس الصُّعداء حين وصلت الحافلة، نزل منها على عجل، ينظر خلفه تارة، وأمامه تارة أخرى، وكأنّ شيءٌ ما يخيفه ويتبعه، أحضر أخاه معه، استدعى أخاه عوّاد، أخبرهم بأنه سيقيم احتفالاً بعودة عودة سالماً لهم، وبأنه سيقوم في اليوم التالي وبعد صلاة الظهر بعمل هذا الاحتفال الذي سيضمّ الجميع. بصيص نور كان يسكن يوماً في صدر عايد، هذا النّور ربّما أنّه بدأ يخفت، أو أنّه تلاشى، أصبح يتخبّط مثل رجل سِكّير، يصحو قليلاً.. ويغيب كثيراً..!.

جلس أمام أمه، انكبّ يقبّل يديها وقدميها، احتضنها بقوة، ألقى برأسه في حجرها، وبدأ يخاطبها:" أمّي.. يا أجمل اسم عرفته، وأصدق كلمة تعلمتها، روحي وحياتي، يا نبعاً للحنان لا أرتوي إلّا منه، لو وضعتكِ في كفّة والعالم كلّه في كفة، لرجحت كثيرا، وإن صَغُرَ العالم في عينَيَّ، لبقيت أنت الكبيرة التي لا تصْغُر، كم تمنيت منذ نعومة أظفاري لو استطعت أن

أقطف النجوم لتتجمل قلادة لجيدك.. والقمر أُلبسُهُ لإصبعك خاتما.. والشمس أُلفُّها إسورة لمعصمك، كنت تغدقين علينا من حنانك وعطفك، ارتوينا حبًّا وسعادة، اختارني الله لك ابناً واختاركِ لي أمًّا رؤوماً.. سهرتِ علينا ولمْ نسهر عليكِ، بكيتِ لألمنا ولمْ نبكِ لألمك، أعطيتِ ولمْ تأخذي، كرمتِ ولمْ تبخلي، لا ولن أوفيكِ حقَّكِ مهما فعلت، ولكنني سأحاول مجازاتكِ وإنصافك يا نبع الحنان، سامحيني إن قصَّرت، ليغفر الله لي، سأريحَكِ وأصلكِ لحياةٍ تحبّينها.. سأهديكِ هدية لمْ يقدّمها ولد لأمه من قبل، أعدك يا أمي بأنك سترتاحين، أعدك بأنْ نبقى معاً يا نبع الحنان، وأسأل الله أنْ ألتقيكِ بالجنان.

تحوَّل إلى أبيه وقبله، انكبَّ على يديه وقدميه يقبّلها، وضع رأسه على صدره الذي أصبح يسمع صوتاً من داخله، وكأنّه شجارٌ في صدره، بعد أنْ عاودته نوبة السّعال التي تلازمه، وبدأ يخاطبه: أبي الحبيب لقد اتّخذَنا الناس سِخرياً "أبي يا تاجاً على رأسي"، يا من شرّفتني بأمي الغالية فلقد أحسنت الاختيار، لكن الله حرَّم اختيارك، وأبدلك زوجاً بأختٍ.. هي منك وأنت منها، لقد أفنيت ما مضى من عمرك وأنت تسهر على راحتنا، كنت مؤدبنا ومعلمنا وراعينا بعد الله، ما أصابنا هو قدرنا ليس إلّا، لقد أهاننا الناس وظلمونا، ما كنت لتتزوج أختك، لكن شتاتكم هو ما أوصلكم إلى ما أنتم فيه، الناس لم يتقبلونا، بل أصبحوا يرفضوننا حتى أنهم سمّونا بدار "أبو الأخوال"، حاولت بأدبي الخلاص من هذا الاسم.. فلم أستطع، حاولت بمالي.. وأيضاً لم أستطع، لم أنس يا حبيب روحي حين دعوتهم يوماً لعشاءٍ فاخرٍ، وأجزلت لهم العطايا والهبات، طلبت منهم بصراحة أن ينادوننا باسمنا، ويتركوا هذا اللقب المشين، بدت السّعادة على وجوههم، عند خروجهم، انهالت علينا كلمات الشكر والثناء، فقالوا: (دام عزّك يا أبو الأخوال)! تدهورَت أوضاعنا، وها أنت تجلس في البيت كجثّة هامدة، دائماً تغيب عن الدنيا، تدمن المخدّرات لتنسى، أعلم بأنّ الألم يعتصرُك، أعلم بأنّ ما حصل يكاد يُفقدك عقلك، أعلم أنْ لا حول لنا ولا قوّة، وها

هي أمي قد جُنَّت، فقدت عقلها ولم تستطع احتمال ما أصابها، جاءتها الحقيقة وهي واهنة، والآن تراها سجينة بالأصفاد، لقد قمنا بسجنها بأيدينا، لم نودُّ ذلك يوماً، لكنْ.. لم يكنْ لنا خيار في هذا! أمّا إخوتي فأنت ترى أنّ أحدهما يتّبع "المستشيخين" المتغطّين بغطاء الدين، بل هم بالحقيقة "فاسدين" وعن طريق الحق بعيدين.. ها هو يوماً تراه بين المستشيخين وآخر تراه بين المشردين.. حاولت اصلاحه.. ولكنّ عقله لا يلين.. أمّا أخي الآخر.. فهو من أكبر المهربين.. تاجر كبير للهروين.. لا يترك أحداً من أذاه وشره.. هو رئيس لعصابة يقودها منْ مقرّه.. كنّوه "أبو الأخوال" رغم جبروته وقوته.. يعيش ذليلاً مكسوراً.. لا يقوى على رفع الظلم عنّا وعنه.. ها هو يتخبّط.. وفي الفساد تورّط.. حياته ليس فيها ليل أو نهار.. أمّا أنا فعجزت وتعبت.. حاولت وحاولت.. لكنني فشلت.. وعن إصلاح الوضع عجزت.. حاولت بحلول كثيرة.. حتى أنني أصبحت عديم الحيلة.. حتّى الفتاة التي أحببتها.. وأردت الارتباط بها.. ذهبتُ لوالدها، وللزواج طلبتها.. وافقت هي وأهلها.. عندما سمعوا بأننا دار "أبو الأخوال"، بشدة رفضوني.. ومن لقائهم منعوني.. وبالعار نعتوني.. ومن حبيبتي حرموني.. وبعدم زيارتهم أمروني.. وبالوعيد والعقاب إن عدت، هددوني.. وها أنا على صدرك يا والدي أنتحب و أبكي.. وأعدك أن يتغير هذا الوضع غداً.. وسأقلب كلّ التوقعات، وأصلح ما أفسده الزمن.. يا والدي.. كنت كلما طلبت رفعةً.. نحو الهاوية.. ازددت هبوطاً.. ولقعر البئر وصلت، ازداد الحمل حتّى كَسَر ظهري.. حاولت أن أكون كالبحر لا يهمّه كِبَرَ السفينة وزيادة وزنها.. يحملها وتبقى طافية غير آبه بها، إلاّ أنّ حِمْلي زاد عن ثِقَل جبل أحد، غرِقَ الجبل وملأني بالمشاقّ والمتاعب، حتى أصابني الوهَنُ والعجز..!

حاولت أن أصنع مستقبلا لي ولكم، تعلمت ولم أجرؤ على أن أتقدم لوظيفة، خوفا من كلام الناس وظلمهم.. قمت بعمل ورشة نجارة كبيرة.. أفنيت فيها كلّ ما ملكنا منْ مال كان لديك، وما جمعته منْ عملي وعمل

اخوتي، فأصبحنا لا نملك قوت يومنا، أمّا مال إخوتي فهو حرام في حرام، ولنْ أطعمكم منه وأنتم مَنْ ربيتمونا على الحلال.
بـدأت صَـرخاتٌ مـن الضّـحك تصـدُر مـن عايـد، هـل كانـت ضـحكات وصـرخات سـعادة لأنّـه وصـل إلـى حـلٍ جـذريٍ؟ أم هـي صـرخاتٌ وضَحِكاتِ جنونٍ أصابه؟ ربّما تكون السّعادة الحقيقيّةً في الجنون، وعايد بدا كمجنون سعيد..!
في اليوم التالي، ذهب عايد إلى أحد المطاعم، طلب منهم إحضار غداء لمنزله.. أحضر عامل المطعم الغداء بموعده.. كان خاروفاً محشيّاً.. أدخله إلى المطبخ.. أغلق الباب على نفسه لدقائق قليلة.. ذهب وفكّ قيود أمه.. ألبسها أجمل ثيابها.. قام بتسريح شعرها.. ألبسها التاج الذي لبسته يوم زواجها فوق رأسها.. عمل لها ثلاثُ جدائل.. حاول أن يكحّلَ لها عينيها.. قام بطلاء أظافرها.. زيّن رسغيها ونحرها بقطع من الإكسسوارات، رشّ عليها من عطرها الذي كان يعشقه والده، مسك بيدها ومشى بجانبها، رافعا رأسه شامخا متباهيا وكأنه يمسك بيد ملكة تخرج إلى رعيّتها.. أجلسها إلى طاولة الطعام، وقال لها: لن تتناولين أطيب غداء وأنتِ مقيّدة! الآن أنتِ حرّة.. وستبقين حرّة يا أمي.. أنت مليكتي وسيدتي.. يا من صحبتك في الدنيا معروفا.. وأحسب أنني كنتُ لك ابنا بارّاً ومطيعا.. وولدا محباً وحبيبا.. رأيت الدنيا من خلالك فأحببتها، ولأجلك عشقتها.. فكانت في نظري عروس جميلة.. ورأيت نفسي كلّ يوم عريسها وحبيبها.. أما وقد أصابك منها ما أصابك.. فإنّي مللتها وكرهتها.. وزهدت فيها وأصبحت لا أطيقها.. باتت بنظري لا تعدل جناح بعوضة، وهي عند الله أدنى من متاع الغرور.
أمي ...
رأيت وعرفت الكثير، والكثير جداً من النساء، الجمال كان سمة للكثيرات، ولكنّني لمْ أرَ بجمالك إلاّ ثلاثُ نساء.. أنت، وصورتك، وظلّك. هنيئاً لي بأنّك أمّي، وأنّني منك خرجت، وإليك انتسبت، ومن صدرك رضعت،

حتّى شبعت وارتويت، وبحضنك نمت وأمِنْتْ، وعلى يديك تربيت، وتحت عينيك ترعرعت وكبرت، حتى أنّني رجلاً أصبحت، فأعطيتني ما لم يعطني إنسان، وكرّمتيني بأنّك أمّي، وفضّلت عليّ بأن اخترت لي أباً اعتززت وافتخرت به من يومي، فكنتُ وما زلتُ أكبر حين أناديه بأبي.. وأناديك بأمّي.

بعدما ناجى أمّه وأبيه، وبدأ يسألهما: من أنتما..؟ هل أنتِ أمّي، أم عمّتي..؟ هل أنتَ أبي أم خالي..؟ هل النّاس على حقّ بمناداتنا دار أبو الأخوال..؟ لنْ أنتظر الإجابة ولا الحقيقة..! ما أعرفه أنّكما أمّي وأبي وكفى.!

جلس الجميع على الغداء، تذكّر عايد بأنّه سيكون موعد ياسمين بعد صلاة العصر، ذهب وفتح الباب الخارجي، تركه مواربا قليلاً، جلسوا جميعاً لتناول طعام الغداء تملؤ نفوسهم الغبطة والسرور.

حضرت ياسمين، دقّت على الباب عدّة مرّات، لكنْ.. لمْ يُجِب أحد.. لاحظت أنّ البابَ كان مفتوحاً.. دفعته ببطءٍ شديد، دخلت والابتسامة ترتسم على وجنتيها .. صعقت من كلّ ما رأت.. الجميع ملقى على الأرض.. كلّهم أموات.. صرخت بأعلى صوتها.. خرجت من البيت مهرولة، وكأنّ أفعى ضخمة تلاحقها لتفترسها.. وقع خطواتها، كصوت حافر حصان يجري، تجمّع الجيران.. طلبوا الشرطة.. وصلوا مسرعين، تحرّزوا على المائدة ، وأيضا على زجاجة صغيرة، كانت بجانب سكين، عليها آثار لحم وأرز، موضوعة على طاولة في المطبخ ، وتحت طاولة الطعام، كانت هناك حقيبة سوداء مقفلة .. فتحها رجال الشرطة ليجدوها مملوءة أكفاناً وحنّاء وزجاجة عطر وصابون وليَفُ حمّام، وجدوا آلة تسجيل بها شريط، يعلن فيه عايد مسؤوليّته عن كلّ ما حصل، وتسجيل ما دار بينهم قبل الحادثة، تحت آلة التّسجيل، وجدوا ورقة عليها توقيع عايد، يوصي فيها بأن يعود كلّ ما يملكونه لصالح مجهولي النّسب، وعلى ما

يبدو أنّه كان قد عمل حساب وترتيب كلّ شيء، فقامت الشرطة بإرسال كلّ ذلك للفحص.
تيقّنت ياسمين بأنّ عايد كان قد اتّخذ قراره، بأنْ دعا أهله جميعاً لدعوة، قرّر فيها إنهاء معاناتهم، فكانت هذه دعوته للغداء الأخير.

❖

تمت بحمد الله وفضله

❖